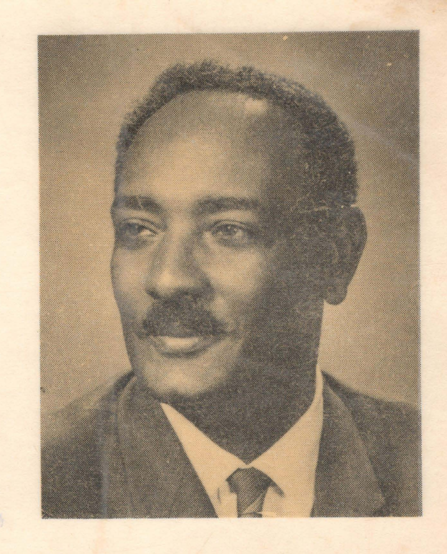
النوبة

التراث والإنسان عبر القرون

د. متوكل أحمد أمين



المؤلف : دكتور متوكل أحمد أمين

* ولد بالخرطوم بحرى وتلقي تعليمه المدرسي بوادى حلفا والخرطوم ثم نال دبلوم الاداب عام ١٩٤٦ من كلية غردون التذكارية (جامعة الخرطوم حاليا)

* حصل على درجات البكالريوس والماجستير ودبلوم التربية من جامعة لندن .

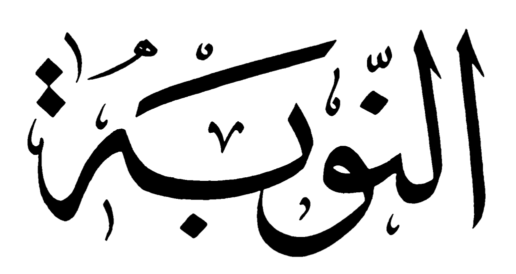
* عمل مدرسا وسكرتيرا للامتحانات والبعثات بوزارة التربية والتعليم ثم محاضرا بالكلية الحربية السودانية بامدرمان .

* عمل ملحقا ثقافيا للسودان في كل من لندن وباريس وواشنطون .

* التحق بعدها بجامعة كلفورنيا (لوس انجلس) حيث حصل على درجة الدكتوراه في ١٩٦٨ .

* ثم عمل أخيرا بقسم التأليف والنشر بجامعة الخرطوم مديرا بالانابة .

* كان يعمل استاذا زائرا (للجغرافيا) في جامعة ولاية كلفورنيا تشيكو . الى أن أصيب بمرض أقعده عن العمل ، ولا زال ينالى علاجه في كليفورنيا .



النوبة

التراث والإنسان .. عبر القرون

د. متوكل أحمد أمين



الطابعون: مؤسسة القرشي للإعلان والطباعة

الإهداء ..

إلى أهلي وعشيرتي الذين عشت
وترعرعت بينهم في ربوع حلفا
دغيم وعنقش ..

إلى الذين استقر بهم المقام في حلفا الجديدة
ووادي حلفا وبقية انحاء السودان
وجمهورية مصر العربية ..

أهدي هذا الكتاب المتواضع ..

متوكل

بسم الله الرحمن الرحيم

تصديره

هذه الدراسة المتواضعة اقدمها للقراء فى وقت يعكف فيه الكثيرون على تنقيب ماضى النوبة وحاضرها فى كثير من جامعات ومعاهد العالم .

قمت باعداد هذا الكتاب فى ظروف غير عادية . فقد كنت اثناء ذلك اعيش مغتربا عن وطنى معانيا أشد العناء من مرض خطير اقعدنى بين بيتى والمستشفى زمنا طويلا..هذا مما يجعلنى اتقدم بشكرى لجهات عدة ، ولبعض الشخصيات التى قدمت لى مساعدات جليلة سأظل احمل لهم فيها العرفان والتقدير مدى الحياة .

لابد ان اتقدم بخالص شكرى وتقديرى لطلبة واساتذة جامعة ولاية كليفورنيافى تشيكو حيث انتدبت استاذاً زائراً بقسم الجغرافيا ، ولقد أحسست فيها بنبل المعاملةوصدق البذل .. كما وساظل أحمل عرفانا لأسرة مكتبة تلك الجامعة التى تفضلت بتقديم تسهيلات لى غير عادية عند اجرائى لابحاثى .

ولا أنسى أن اذكر المدينة الجامعية الصغيرة (تشيكو) حيث الهمتنى الطبيعة الساحرة فيها احساساً بالجمال وبالقدرة ، فايقظت فى نفسى كوامن العطاء وظلت مصدروحى والهام لكل عمل أكاديمى اقدمت عليه .

وفوق ذلك ما وجدت فى وطنى من مساعدات بذلت فأحسستها اكبر من أن تصوغها الكلمات ، ظلت على الدوام مصدر احساس بالغبطة والارتياح ، انقل من خلالها عظيم شكرى وثنائى للمجهود العظيم الذى قامت به الزميلة الآنسة – سعاد عبد الرحمن احمد من مراجعة وصياغة وترتيب وطباعة للكتاب . مجهود جبار للغاية يستحق كل ثناء، إذ كرست من وقتها الكثير فى سبيل اعداد المخطوطة .. كما قام صديقى وزميلى الدكتور صالح العريفى استاذ الجغرافيا بجامعة الخرطوم باعداد خرائط الكتاب رغم مسؤلياته العلمية والاكاديمية بالجامعة .. فله منى التقدير والامتنان والثناء . وقد زودتنى وزارة الثقافة والاعلام بعدد من الصور الحية ذات الصلة بموضوع الكتاب ، لها منى كل شكر وتقدير .

ولا بد أيضاً أن اسجل شكرى وثنائى وتقديرى للأخ الاديب – محمد صالح يعقوب

الذى ساهم مساهمة فعالة مع الزميلة سعاد فى مراجعة النص والصياغة والاسلوب، خاصة وقد قدمـــا اقتراحـــات مثمرة بشأن مادة الكتاب وعنوانــــه .

ثم اتقدم بعظيم شكرى لصديقى الحميم وزميلى الدكتور /حسن ابشر الطيب عندما كان المستشار الثقافى بسفارتنا بواشنطن حيث وفر لى الظروف التى ساعدتنى على العمل الاكاديمى، كما لم يأل جهداً فى تقديم خدماته الجليلة اثناء مرضى، وفى زياراته للاستفسار وللوقوف بنفسه على ما كنت أقوم به، كل ذلك على الصعيد الشخصى والرسمى فابدع أيما ابداع .

ثم تجدنى مديناً بالشكر والامتنان الى اللجنة القومية لتطوير وتعمير وادى حلفا وبحيرة النوبة لاهتمامها الكبير بهذا الكتاب ونشره ولاسيما السيد المهندس — أحمد عباس بدر معتمد تطوير وتعمير وادى حلفا والسيد — عبد المجيد محمد عبد اللطيف ، نائب المعتمـــد وكذلك السيد عزت فرحات الذى قام بمجهود كبير فى تزويد الكتاب بالصور كما كان حلقة الاتصال بين المؤلـــف والناشـــرين .

أما ما قام به صديقي العزيز محمد عثمان جودة فأمر يصعب عليَّ حصره في كلمات .. فالفضل في طبع ونشر هذا الكتاب المتواضع يرجع اليه اولاً وأخيراً فقد كان حريصاً كل الحرص أن يرى النور ..
ومنذ أن تسلم المخطوطة كان يتجول بين المطابع رغم عظم مسئولياته الرسمية والشخصية .. ورغم العقبات التي واجهته ..
كما استطاع بما لديه من ذكاء وثقافة واسعة أن يحل كل طلاسم المخطوطة ويزيل عنها كل ما فيها من أخطاء طباعة وغير طباعة ويقرأ التجارب بعناية فائقة في مجهود جبار لا يعرف الكلل ..
لهم جميعاً عظيم شكرى وتقديرى .

واخيراً اتقدم بالشكر الكثير للمربى الفاضل السيد — توفيق أحمد سليمان لمراجعة الكتاب واهتمامه الكثير بمادته وللعالم والمؤرخ الممتاز نجم الدين محمد شريف مدير مصلحة الآثار الذى قام بمراجعة الكتاب مراجعة دقيقة وابدى اقتراحـــات مفيدة للغاية ولفت نظرى الى نقاط هامة فى البحث جزاه الله كل خير .

متوكل أحمد أمين

المحتويات

النوبة : التراث والانسان عبر القرون

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

النوبــة

التراث والأنسان عبر القرون

مقدمــة

بلاد النوبة ، هى تلك الأرض النيلية الضيقة ، بشمسها الملهمة وتاريخهـا الرابض شامخاً ومتشامخاً فى جوف الأبــد ، . أصبحت مثار اهتمام وموضع دراسة ،اهتم بتاريخها الباحثون والمؤرخون فى محاولة منهم لارتياد المجهول ، وصولا إلى المعرفة، وبحثاً عن الحقيقة الكامنة فى أغوار التاريخ النوبى ، والذى تمثله حضارات تليدةباقيةفوق الأرض وبين طيات الثرى .

ظل تاريخ النوبة فى المنطقة الأم التى تمتد بين الشلال الأول والثانى خاضعا للدراسة المستفيضة والبحث الموضوعى والكتابة الهادفة خاصة عند اعــلان مشروع السدالعالى الذى أصبح فيما بعد حدثاً كبيراً .

ولقد أصبح ذلك السد الذى يعتبر من اضخم المنشئات الاقتصادية على النيل ، مثار اهتمام الكثيرين ... ولكن بالرغم مــن اعترافنا بأنتصار العلم وبعظمة الانسان.الاأننا لا بد أن نذكر أن السد ذلك الصرح العظيم ، كان بداية النهاية لحياة ثرية بحضارتهاو بمعالمها وبفنونها ... تلك الفنون التى واجهت محنة الغرق وظلت شاهدة على اصالة الانسانالنوبى تعكس لنا دواخله وقدراته وعنفه وصموده واصراره على البقاء .

وفى زمان غير هذا الزمان ، ارتفع صوت هادر تدفقت بعده المياه على أرضالنوبة، فتصدت لها مداخل المدينة الجسورة واصطدمت بالصخور والبيوت فتسامقت المآذنوتمايل النخل رافضاً ومتحديا .. ولكن رغم كل هذا لم يطل صمود الصامدات أمام تدفقالمياه. والتى غمرت جانبًا من الآثار التى ارتبطت بالأرض فغاصت فى عمــق الزمن ،وبين عشية وضحاها صارت النوبة بلاداً غريبة حتى على أهلها ، ينتابهم الأسى عندمايتذكرون تلك الأرض التى انتموا اليها انتماء أصيلا وتشربوا بحبها وتنقلوا بين تلالها ونواعيرها .. ظلالها ومعابدها ، بيوتها وحواريها .. كل ذلك ذكرى طيبةوأمينة ، يحملها النوبى ويعايشها بحب وشوق وحساسية .. حنينهم الى الأرض التى احتضنتهم ومنحتهم

الحياة بسخاء ، فهم منها ولها ، هم جزء من نيلها وشمسها ، هي الأرض التى شيدت عليها الحضارة المتجددة بتجدد الصباح ، المتلونة بضيائه .

تضاءلت الرؤيا وانحسرت نقطة الضوء أمام الأنسان النوبي ليجد نفسه مسافراً عبر آفاق جديدة تمتد فيها المسافة تجاه حلفا الجديدة ووادى حلفا فى جمهورية السودان الديمقراطية وكوم أمبو فى جمهورية مصر العربية .. ومن نقطة انطلاق متلاشية تحرك القطار بالجموع الغفيرة مغادراً أرض الميلاد ، يطوى الأرض بدورانه شاقاً الحقول والوديان ، مؤكداً للنوبي أن الأرض لن تتنفس ثانية ولن ترضى بغيره بديلا ، ستحتفظ بالخصب وتدعو له .

فى خلال الرحلة تداخلت الأصوات فذابت الأحزان وتهدجت الآهات وتلاشى صوت الدفوف خلف هدير القاطرة التى بدأت تزحف فى سرعة تداخلت فى الأبصار معها عاليات النخل ، وتضاءلت أمامها المآذن والبيوت ، واختفى جانب المعابد والصخور ، ولكن تلك الرؤيا المشرقة ظل يحملها النوبي خلف حجب شفافة ، تكاد ترى من خلالها مايحمله من عالم بلاده الخصيب .. فالنوبي متشح بلون الأرض ، دائماً ما يتنفس عبيرها سماحة وعزة ويحمل خصبها فى دواخله .. وسريعا ما ترى صور الحياة متحركة آمنة من خلال عينيه المرهقتين .. وترى السواقى ممتدة على امتداد الأرض ، تدور بلا توقف رتيبة كدورة الحياة ، ومن خلفها السوائم تنتقل على بساط الخضرة كانتقال الظل للبعيد ، والصبيان يتغنون بحب الحياة كفرح الأرض فى زمان اخصابها . كل هذا تحسه وتستمتع به على مسار القاطرة المسافرة بنا فى أعماق ذلك النوبي (عنقش ، دغيم ، دبروسة ، صحابة ، اشكيت ، دبيرة سرة ، فرص ، ارقين) كلها أماكن حبيبة الى نفوس النوبيين ابتعدت عن نظرهم واختفت تحت بحيرة النوبة ، ولكنها لم ولن تبتعد عن قلوبهم .

ولما لم يطل زمان التأمل بدأت طلائع الأرض ، فتوهجت مداخل حلفا الجديدة ووادى حلفا وكوم امبو بحرارة اللقاء واتسعت أمام سرعة القطار ، فازداد الفرح وتعالت الصيحات ، وأخيراً هدأ القطار بين الأسى والحنين والخوف والغبطة ، ونزلت الجموع وهى مؤمنة بأن حلفا ليست هى الأرض بل هى القلب الكبير الذى

يخفق بـين جنباتهم ، وهى النبض الذى ينبههم دائما باستمرار الحياة ، وهى الشريان الذى سيتدفق فى داخلهم أملا وطموحا وتفاؤلا ليصنعوا الحياة من جديد ، وليعيدوامجد بلادهم فوق جسور جديدة متجاوزين حدود زمان بعيد يعانق فيه الحاضر الماضى متطاولا للمستقبل .

ولكن يجب ألا ننسى أن قيام السد العالى يعد حدثاً عظيماً بالنسبة للعلم ، حيث تدفقت جموع العلماء والباحثين نحو أرض النوبة ينبشون تاريخها القديم والحديث، مماألقى الضوء على ماض يحفل بثروة تاريخية عظيمة هى ملك للبشرية جمعاء .. الأمر الذىأدى الى أن تتبنى هيئة اليونسكو (هيئة التربيةوالعلوم والثقافة التابعــة للامم المتحدة)مشروع انقاذ آثار النوبة ، ذلك المشروع الذى التقى فيه الشرق بالغرب ، كما اشتركت فيهالكثير من جامعات العالم ، مما تمخض عنه قدوم أكثر من ٥٠ بعثة أثرية لوادى النيل للاشتراك فى انقاذ آثار النوبة من الضياع ، وللقيام بالحفريات التى يمكن أن تضيف لتاريخناصفحات جديدة تحدثنا عن المجهول فى تلك الحضارة .

يوجد أيضا فى تلك البلاد بقايا العديد من المدن التجارية والحربية الـتى لمتمسها يد علماء الآثار أو تتناولها أقلام المؤرخين منذ آلاف السنين. كما يوجـد العديدمن المعابد الضخمة مثل أبى سمبل وبوهين وسمنة وأنس الوجود بالاضافة الى التماثيل والنقوش التى تعتبر تحفا فنية رائعة وأعمالا هندسية بديعة .

ونحن لا يفوتنا أن نحمد لعلماء الآثار قدرتهم على انقاذ الكثير من آثار المنطقة وتدوين الكثير من المعلومات عنها ، والتى اكتشف فيها الجديد مدوناً فى تقاريرهم وكتبهم التى رأى بعضها النور ، كما يجب ألا ننسى تلك المجهودات الـتى قام بهامصلحة الآثار بالسودان وتعاونهم الوثيق مع البعثات الأثرية فى انجازهـا لأعمالها الكبيرة.
يجب ألاننسى مجهودات السيد نجم الدين شريف وزملائه والسيد ثابت وغيرهم .

ولكن بين هذا وذاك تعود بى الذاكرة فى أحيان كثيرة الى مارس مـن عام ١٩٦٠ بباريس حيث كنت أعمل ملحقاً ثقافياً لجمهورية السودان بغرب اورباومندوباً للسودان لدى هيئة اليونسكو .. اذكر ذلك اليوم الذى اعلن فيه مدير اليونسكو الدكتور

فيتورى فيرونيز بدء حملة انقاذ آثار النوبة ، فتحدث فى الاجتماع السيد زيادة أرباب ممثلا للسودان ، والدكتور عبد العزيز القوصى ممثلا للجمهورية العربية المتحدة، فعقدوا العزم على المساهمة مع هيئة اليونسكو لا نجاز هذا المشروع الضخم قبل أن تغمرمياه السد العالى معالم الارض النوبية .

وتحدث المسيو اندرية مار لو وزير الثقافة الفرنسى آنذاك فقال :

« فى هذا اليوم الثامن عشر من مارس عام ١٩٦٠ ولأول مرة دعى العالمللتعاون لا نقاذ آثار تلك الحضارة النوبية القديمة التى هى ملك للانسانية جمعـــاء ، خاصةونحن نرى العالم يدور فى فلك اضطرابه السياسى وعداواته البغضاء .. ان مثل هذا النداءبلاشك حدث تاريخى هام لالأنه يعنى آثار النوبة فحسب ، بل لأنه يعلن لاول مرة أن فنون العالم هى جزء من مدنية البشرية جمعاء » .

وقال مدير اليونسكو : —

« لقد بدأ العمل فى تشييد السد العالى ، وفى ظرف خمس سنوات ستصبـــح منطقة النوبة بحيرة كبيرة بالرغم من وجود المبانىالتاريخية الرائعة والفنون القديمة، والتى تعد ضمن أعظم ما ابتدعته يد الانسان ، مهددة بالغرق » . « ومن ثم نجـــد حكومتى الجمهورية العربية المتحدة والسودان قد تقدمتا بنداء الى اليونسكو لمحاولة انقاذ الآثار المهددة بالغرق ، والتى هى ملك للبشرية . ونحن بدعوتنا هذه لا نعنى أن نحفظ تراث الماضى من الضياع فحسب ، بل نأمل أن يكشف النقاب عن ثروات لـــم تكتشف بعد وحقب تاريخية لم تكن معروفة من قبل » .

« وكلنا يذكر جملة هيرودتس المأثورة « مصر هبة النيل » . وهى عبارة مألوفة لدى الكثير من طلاب المدارس ، ولكن هاهو ذا النيل الذى هو مصدر الخير والرخاء يقسو على تلك الثروات التاريخية والثقافية الهائلة والتى هى مخلفات أجيال رحلـــتمنذ أمد بعيد » .

كان لهذا النداء أثر قوى على العالم أجمع حيث هرعت الحكومات والمؤسسات العلمية واللجان الأثرية الى وادى النيل لانقـــاذ آثار النوبة، حيثكان أول من رحب بالمشروع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذى قال :

« لئن كانت التزامات التعمير والعمل من أجل الرخاء الانسانى قد اقتضـــت تنفيذ مشروع السد العالى على النيل ، فأن هذه الالتزامات لم تمنعنا من التفكـــير فى انقاذ جزء يعتبر من أهم ما ورثناه من تراثنا وماتراثنا الا جزء من التراث الانسانى الكبـــير ».

مياه السد العالى وسكان المنطقـــة السودانية :

لنقف قليلا ونشير فى ايجاز الى أثر فيضان السد العالى على المنطقـــة وسكانها وانتقالهم الى مواطنهم الجديدة ومدى التأثر الذى ألم بهم لرحيلهم الى أرض تختلف عن الأرض التى ألفوا الحياة فيها .. وهاك ما كتبته لجنة توطين أهالى حلفا فى تقريرها الضافى الذى صدر فى عام ١٩٧٠ م (ص٥٩) ووصفت فيه مشهد أول فوج يبارح المنطقة الى حلفا الجديدة .

« كان مشهد أول فوج يبارح المنطقة فى اليوم السادس من يناير ١٩٦٤ مهيباً ومحزناً ، فقد تجمعت وفود من كل سكان المنطقة لتشاهد وتـــودع الطليعة الأولى عند مبارحتها وطن الآباء والأجداد .. لم تخفف من رهبة الموقف تلك الطبول والأذكار والأناشيد والهتافات التى اشتركت فى الوداع . وقبل أن يبـــارح المهاجرون قراهم طافوا فى موكـــب حزيـــن يحملون جريد النخل وفروع الاشجار على مقابر موتاهم وعلى حدائقهم ومزارعهم ، ونساؤهم يصحن ويبكين ، لقـــد كان المشهد بحق محزناً ومؤثراً حتى تقدم موكبهم نحو القطار بخطى وئيدة ، وقوبلـــوا على طول الطريق العام و من كل المواطنين بالتقدير والتكريم والتشجيع » . (١)

كان الفراق بحق أليما . . كيف يغادرون موطنهم ، وهى الأرض التى التصـــقوا فيها بالجذور ـ فكانت التاريخ ـ عاشوا فيها وآباؤهم وأجدادهم منذ آلاف الســـنين حتى أصبحوا جزءاً لايتجزأ منها .

واذكر ذات يوم أن صديقاً جليلا عند ما كان يشترك فى تشييع جنازة فى قريـــة حلفا دغيم التفت اليه أحد المشيعـــين قائلا :

(١) أنظر الى ماكتبه في هذا الصدد الكاتب المبدع السيد ابراهيم احمد ابراهيم المحامى في خاتمة هذا الكتاب ويعتبر كتاب المرحوم حسن دفع الله بعنوان « هجرة النوبيين » تحفة أخرى رائعة أعطى فيها الموضوع حقه ..

« رحم الله هذا الرجل ، لا شك أنه سعيد بمغادرة هذه الحياة قبل أن يرى ذلك اليوم الحزين الذى ستغطى فيه مياه السد العالى بلاده » .

واذكر أننى عند ما زرت قريتى دغيم لآخر مرة عام ١٩٦٣ م كان معظم من قابلتهم من الأهل والصحاب يعيشون فى وجوم وحزن دائم غير مصدقين أن بلادهم ستختفى يوماً ما ، فكانوا يقضون معظم أوقاتهم يبتهلون إلى الله أن ينقذ بلادهم من الغرق ، والله لطيف بعباده اذ أنعم عليهم بأرض خصبة غنية بثرواتها الزراعية على نهر عطبرة وعوضهم عما فقدوه ، كما أنه بقدرته عز وجلّ بعث بوادى حلفا من جديد على ضفاف بحيرة النوبة ، وفى كلتا المنطقتين وغيرهما بدأ النوبيون يعيشون حياتهم الجديدة ويبنون حضارة جديدة ، هى امتداد لحضارتهم القديمة فى الشمال .

والآن وقد انطوت صفحة من التاريخ بحلوها ومرها وبدأ النوبيون حياة جديدة فى تلك المناطق السكنية الجديدة على نهر عطبرة وكوم امبو ووادى حلفا والمناطق الأخرى ، لنحاول سرد تاريخهم الجغرافى بايجاز فى الصفحات التالية . .

قارئى الكريم ، لقد استطردت فأطلت فى هذه المقدمة وفى سرد هذه الحوادث ولكن كل هذا لاوضح لك مدى تعلق النوبيين ببلادهم وحبهم لها وفخرهم بتاريخها وحضارتها .

متوكل أحمد أمين

أهميـــة منطقة النوبة وتاريخهـــا

كانت منطقة النوبة فى تلك العصور القديمة ملتقى لحضارات قديمة ، وموطنـــاً للثقافة وجسراً للتجارة عبر جميع مداخلها . هذا ما ذكره بعض العلماء الذيـــن عنـــوا بدراسة تاريخها . . فقد ذكر البروفسور الزنجى الامريكى الراحل ليوهانسبرى ،أنـــه يزداد فخراً بالتاريخ النوبى باعتباره جزءاً هاماً من تاريخ القارة الافريقية ، الذى كان فى الأصل ينتمى اليها البروفسور الراحل . قام هذا العالم الجليل بأعداد مجلدات ضخمـــة عن التاريخ النوبى الافريقى نأمل أن ترى النور فى المستقبل .

كذلك ورد فى كتابات العالم الفرنسى فير كوتير ، أن النوبة السودانية تتمتـــع بثروة طائلة بما فيها من الآثار والمعابد والكنائس والمدن المدفونة ومخلفاتها الـــتى كانت تنتظر أماطة اللثام عنها لتحدثنا عن نفسها وتمدنا بما خفى من أسرارها . وقد ذكر كذلك أعضاء البعثة الاسكندنافية والتى كان يترأسها البروفسور ساف سودر بيرق أن نتائج الحفريات التى قاموا بها كانت أعظم بكثير مما توقعوه ، وأن المؤرخين وعلماء الآثار قد ظفروا بمعلومات ذات أهمية قصوى بالنسبة لتاريخ المنطقة ، وهم الآن بصدد اصدار مجلدات عن هذا التاريخ الذى يبدو أننا لانعرف عنه الا النذر اليسير . كما وقد صدرت بالفعل بعض المجلدات من انتاج العلماء أمثال البروفسور وولتر امرى والبروفسور ساف سودر برق والبروفسور شينى وبروفسور بروس ترقر وتوم لتل وغـــيرهم ، ممن نشروا أبحاثهم القيمة باللغة الانجليزية ولغات اوروبية أخرى والتى دلت علـــى دراسات عميقة فاحصة حول آثار النوبـــة ، ونرجو أن تصل هذه الابحاث الى القارىء الكريم فى أنحاء العالم فى المستقبل بأذن الله وأن يترجم أغلبها حتى تكون فـــى متناول القارىء فى بلادنا وكافة أرجاء الوطن العربى .

ويمكننا الآن أن نتساءل من هم هؤلاء النوبة ، وما هى الأسباب التى جعلـــت من بلادهم منطقة ذات أهمية كبرى ومدنية عظيمة ، اهتم بها علماء العالم من أقاصى الشـــرق والغرب . تلك كانت أسئلة تناقلتها الألسن فى كل مكان زرته فى الخارج .

وقـــد اختلف البعض فى أصل النوبة وحدود منطقتهم ، ولو أن هناك ما يقرب الاجماع على أن النوبيين هم اولئك القوم الذين يسكنون بين الشلال الأول والرابع

اويعتقد أنهناك صلة قوية بينهم وبين المصريين وذهب البعض الى أن المصريين جالية نوبية نزحت من الجنوب الى الشمال . ويسوقون الادلة منها أن المصريين فى عصرماقبل التاريخ كانوا يدفنون موتاهم ورؤوسهم متجهــة نحو موطنهم الاصلى فى الجنوب.. وأن آلهة المصريين آوزيرس وحورس من النوبة (راجع شوقى الجمل ص٥) .ويذهب فريق آخر الى القول بأن النوبيين أصلهــم مصريون نزحوا من مصر الى الجنوب،ولعل وجود الآثار المصرية والآلهة والاهرامات،معالم يستدلون بها على ذلك . كما وردمنقبل فى التوراة والانجيل اسم (كوش) ويقال أن (كوش) هذا هو جد النوبيين وأخو (مصرايم) جد المصريين وكلاهم من حام بن نوح. لذلك عرف النوبيون بأنهم حاميوالأصل ، ولو أن بعض علماء الاجناس يعتقدون أن النوبيين ليسوا بحاميين ، وانما هم منأصل السودانيين الشرقيين ، وزعموا أن الحامية بمعناها الشائع لا وجود لها ولكن رغمهذا الاعتراض هناك شبه اجماع بين معظم العلماء وأخص بالذكر العالم سلقمان بأنالنوبيين ينحدرون من أصل حامى مثل المصريين القدماء والاثيوبيين والبجة . ومهمــا يكنمن أمر فإن هناك صلات وثيقة بين المصريين والنوبيين على مر القرون وان اختلفت ثقافاتهم فى بعض الحقب التاريخية ، ولاشك أن كلا منهم قد أثر على الآخر فــى كثيرمن العهود التاريخية .

ويقال أن كلمة نوبى مشتقة من الكلمة النوبية (نب) التى تعنى (الذهب).فقد عُرفت بلاد النوبة كمصدر للذهب منذ أقدم العصور ، وكان الرومان هم أولمــن أطلقوا اسم النوبة على سكان تلك البلاد ويتضح ذلك أكثر فى الكتاب الجغرافىالقديم الذى وضعه الجغرافى الرومانى (استرابو) على أن المصريين القدماء قد أطلقوا على هذه البلاد اسم تانهسو ويعتقد أن هذا الاسم قد يكون تحريفاً لكلمة محــس ، أو كماقال بعض العلماء (تا : أرض — نهســو : الســود) وهذا يعنى أن تانهســو معناها(أرض الســود) .

ويقول الدكتور شوقى الجمل : قد تكون هناك صلة بين نهســو وكلمةالنحــاس العربية ، فسكان النوبة لونهم قريب من اللون النحاسى ، إلا أننى رغم ايمانى بعظمة ما كتبه هذا الكاتب العظيم أشك فى صحة هذا التفسير ، إذ ليس للنوبيين لون خاص

يميزهم عن غيرهم .

وقد اطلق على بلاد النوبة اسماء أخرى ، فسماهم الاغريق مثلا بأثيوبيا أوذوى السحنة السوداء ، كما عرفت بلاد النوبة أيضاً بواوات فى الجزء الاسفل منها ،اى بين الشلال الاول والثانى وكوش فى الجزء الاعلى منها. ومن الاسماء الأخرى التى اطلقت على بلاد النوبة ، دودى كاشينوس وبلاد مازوى وارتيت ويهمنا ايضاً من وجهة نظر الجغرافية التاريخية أن كلمة نوبة كانت تطلق على سكان المنطقة الواقعة بين الشلال الاول قرب اسوان حتى ملتقى النيل الازرق والابيض . . ويمكن تقسيم ذلك الى ثلاثة مناطق :

١) النوبة العليا : من ملتقى النيلين حتى دنقلا أى الشلال الرابع .

٢) النوبة الوسطى : من الشلال الرابع الى الشلال الثانى قرب وادى حلفا.

٣) النوبة السفلى : من الشلال الثانى إلى اسوان . . غير أن هذا العنصر النوبى المعروف اليوم هو الذى يقطن بين الشلال الرابع والأول ويتكون من أربعة عناصر رئيسية هم :

(١) الكنوز ، (٢) الفاديجا أو الحلفاويون أو كما يسميهم البعض (النوبيون) بالمعنى الضيق ويسميهم البعض بالبربر (اسوة بسكان شمال غرب أفريقيا الاصليين) ولو أن هذا التعبير العامى لايستعمل كثيراً .

(٣) المحس ، (٤) والدناقلة ، وقد اختلط معظمهم بالقبائل الأخرى وبمصر رغم أن موطنهم الجغرافى قد أدى إلى تمسكهم الشديد بعاداتهم وتقاليدهم .

ويهمنا هنا فى المقام الاول أن نذكر أن النوبيين سواء فى النوبة العليا أو السفلى قد أسهموا بنصيب وافرٍ فى تاريخ السودان منذ أقدم العصور كما ساهموا بنفس القدر مع اشقائهم فى شمال الوادى فى اقامة حضارات وادى النيل منذ أربعة آلاف سنة تقريباً.

وترجع أهمية بلاد النوبة التاريخية الى الأسباب الآتية : -

أولا : الموقع الجغرافى :

ذلك الموقع الذى جعل من بلاد النوبة هدفا منشوداً للقوافل والسفن التجارية والأساطيل النهرية ، الأمر الذى جعلها جسراً قوياً وصلباً ساعد على دخول مصر ثم افريقيا ومنطقة البحر الابيض المتوسط . . فقد كانت تمر خلالها القوافل المحملة

بالخيرات والنفائس الى مصر والعالم القديم ، كذلك كان لهذا الموقع أهمية استراتيجية خاصة لمصر ، فالشلال الأول والثانى كانا حصوناً طبيعية تقف فى وجه كل الغارات الآتية من الجنوب .

ثانياً : الموارد الاقتصادية :

كانت بلاد النوبة غنية بمنتوجاتها الثمينة مثل الذهب الذى كان يستخرج بكميات ضخمة من وادى العلاقى ، الذى كان يجمع فى ميناء كوبان النهرى ثم يحمل بالسفن إلى الشمال ، وحتى الى عهد قريب كان يستخرج الذهب فى أم نبارى بالقرب من المحطة رقم (٦) على الخط الحديدى الذى يربط وادى حلفا بأبى جمد فى الصحراء النوبية ، بالاضافة الى ذلك نجد أحجار البناء كالجرانيت والأخشاب التى تستعمل لبناء السفن ، وكذلك بعض الحاصلات الزراعية والحيوانية التى كان يحتاج اليها المصريون وكانت تتوفر فى بلاد النوبة وجنوبها .

ثالثا : القوى البشرية :

وقد كانت هذه المنطقة تمثل مصدراً هاماً للعمال المهرة الذين اتقنوا طريقة بناء السفن والنحت وعمل الفخار ، وقد أجمع المؤرخون أن هؤلاء العمال كانوا ولازالوا يتمتعون بذوق رفيع ويملكون قدرات فنية ومواهب جمالية ظهرت فيما شيدوه من مدن ومبان ، وما نقشوه من زخارف وما صنعوه من فخار .

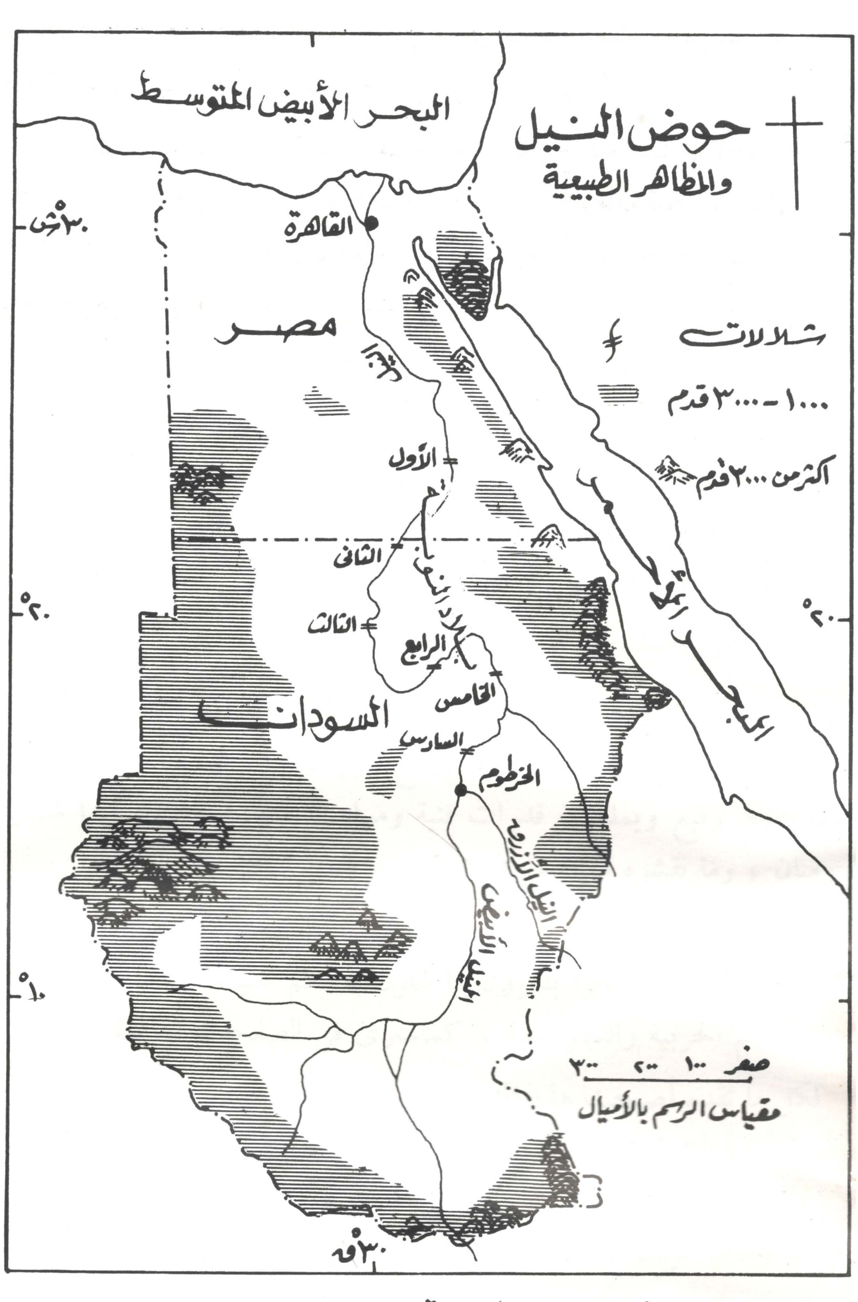
ويتمتع النوبيون بذكاء لماح تعكسه لنا مخلفاتهم ومدوناتهم ، كما نجده واضحاً وجلياً فى الاساليب التى كانوا يديرون بها شئون بلادهم السياسية منها والعسكرية وفى وضع خططهم الحربية والدبلوماسية ، كماسترى فى الصفحات القادمة .

لكل ما تقدم أصبحت هذه المنطقة معبراً للتجارة والجيوش والثقافات ، كما تأثرت بلاد النوبة أيضاً بأعرق الحضارات وأعظم المدنيات القديمة ، فعايشت الحضارة المصرية القديمة و الاغريقية والفينيقية والرومانية . كما نجدها قد تأثرت بالديانات السماوية كالمسيحية والاسلامية .

لهذا نجد أن الحضارة النوبية قد أخذت من تلك المدنيات التى تركت آثارها عليها ،

وكان لابد لنا أن نذكر ذلك العطاء السخى الذى قدمته حضارة النوبــة للحضارات التى تقدم ذكرها لا سيما الحضارة المصرية والتى تركت عليها آثاراً واضحة .

من هنا لا بد لنا من الانتقال نحو منعطف نطرح فيه السؤال وهو . . . متى بدأ تاريخ النوبة ؟ وما هى أهم معالمه والاطوار التى مر بها ؟ وماذا قدم النوبيــون لافريقيا ، بل للعالم ؟ . . هذا ما سنحاول معالجته فى الصفحات القادمة بعد أن نبــدأ بوصف جغرافى موجز لطبيعة الارض النوبيــة .



حوض النيل
والمظاهر الطبيعية
البحر الأبيض المتوسط
القاهرة
٣٠° ش
مصر
شلالات
١٠٠٠ - ٣٠٠٠ قدم
أكثر من ٣٠٠٠ قدم
الأول
الثاني
الثالث
الرابع
الخامس
السادس
السودان
الخرطوم
البحر الأحمر
النيل الأزرق
النيل الأبيض
٢٠°
١٠°
صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠
مقياس الرسم بالأميال
٣٠° ق

خريطة رقم (١)

نبذة عن جغرافية بلاد النوبة الطبيعية وتأثير المنطقة فى تاريخ وادى النيـــل

أرض الجنادل :

تعتبر بلاد النوبة جزءاً من الصحراء الكبرى (التى تمتد من المحيط الاطلنطى حتى خليج العرب) ، واذا استثنينا القليل من الواحات ، نجد أن هذه المنطقـــة الصحراوية تخلو من أى أثر للنبات أو الانسان الا فى وادى النيل الذى يعتبر واحة كبرى تروى رقعة من الأرض الصحراوية من الجنوب الى الشمال ولا غرابة اذا ارتبط ماضى النوبيين وحاضرهم بهـــذا النيل الذى لولاه لكانت تلك المناطق جرداء لاحياة فيها .

ولا يعنى هذا أن الصحارى الممتدة بأرض النوبة لا قيمة لها لبنى الانسان ، اذ يدل ماضى الصحراء النوبية على أنها كانت غنية بمناجم الذهب كما كانت معـــبرا للعديد من القوافل منذ أقدم العصور حتى اوائل القرن العشرين ، كذلك كانت الصحراء الليبية غرب النيل معبرا لطرق القوافل ، أهمها (درب الاربعين) .

وبعودة ثانية إلى وادى النيل الذى يشق أرض النوبة نجـــد أنه ملـــىء بالجنادل ، لذلك سميت هذه المنطقة بأرض الجنادل . فبين الخرطوم وأســـوان نجد ستة من هذه الجنادل أو الخوانق ولعلها تكثر بصورة واضحة بين كرمـــة ووادى حلفا

تتكون هذه الشلالات من صخور بلورية صلبة ، تعتبر جزءا من الصخور العتيقة التى تطغى على الهضبة الافريقية القديمة . وهنا اى عند الشلال ، يشتد انحـــدار المجرى لدرجة تعوق الملاحة وتسبب بعض الأخطار للسفن . . فهناك الشلال السادس الذى يطلق عليه السبلوقة وهو أول هذه الشلالات الستة ، وبالرغم من ضخامته إلا أن دوره التاريخى لا يذكر إذا ما قارناه بالشلال الأول والثانى والثالث مثلا ، وفى شمال العبيدية يبـــدأ الشلال الخامس متجها شمالا حتى أبى حمد حيث يغير النهر مجـــراه نحو الجنوب الغربى .

ويقع الشلال الرابع قرب كريمة حيث يعتبر الحد الأعلى لمنطقة النوبة بالمعـــنى

الواسع ، ولو أن سلطانهم قد امتد حتى سنار فى العهد المزوى . .وفى هذه المنطقة أى قرب الشلال الرابع قامت نبتة التى كانت من أكبر عواصم النوبة العليا . . من هنانجد أن من حدود هذا الشلال وحتى كرمة يخلو النيل من العوائق ويصلح للملاحة النهرية.. وعند كرمة يبدأ الشلال الثالث الذى يكاد يكون متصلا بالشلال الثانى قرب وادى حلفا. فى هذه المنطقة تعترض مجرى النيل صخور متشابكة وعقبات كثيرة ، ولاننسى أن لهذه المنطقة دوراً كبيراً فى التاريخ ، اذ اقيمت على الشواطىء المتاخمة لها أكبر إستحكامات عرفها الانسان فى التاريخ القديم ، فضلا عن أنها تعترض سبل الملاحة وتسبب الكثير من الأخطار للمواصلات بين شمال الوادى وجنوبه . ويعتدل النهرفى انحداره شمال وادى حلفا حتى جنوبى أسوان ، حيث يقع الشلال الأول الذى يتكون من صخور الجرانيت التى تعترض المجرى حوالى اثنى عشر كيلو متراً . كانت هذه الصخور ذات أهمية خاصة لبناء كل من خزان أسوان والسد العالى ، وهنا أيضاً عند الشلال الأول قامت الحدود الجنوبية للممالك المصرية عبر عهود طويلة حيث أقيمت الاستحكامات القوية داخل النهر وعلى شاطئه .

وقد استخدمت الشلالات وخاصة الأول والثانى والثالث كحدود سياسية لبعض الممالك المختلفة المصرية ، والنوبية والكوشية وشيّدت عليها حواجز عدة من الاستحكامات والطوابى التى نجد آثارها باقية حتى قيام السد العالى .

ويعتبر الشلال الأول الحد الشمالى لمنطقة النوبة السفلى حتى قبل قيام السد العالى . وكما ذكرنا نجد أنه فى معظم الحقب التاريخية فقد لعبت هذه الشلالات دوراً هاماً فى تاريخ وادى النيل بوجه عام والتاريخ النوبى بوجه خاص . وقد سبق أن ذكرنا أنها اعاقت الملاحة وتسببت فى غرق بعض السفن التجارية ، وبذلت السلطات الحاكمة مجهودات جبارة للتغلب عليها وأقامت عندها تحصينات ضخمة . وقد وصف البرفسور ولتر أمرى هذه الاستحكامات بأنها أكبر ما شيده الأنسان فى التاريخ القديم .

ولقد وضح أن حجارة البناء والقرانيت بالذات كانت تنقل من هذه الشلالات والمناطق المتاخمة لها لبناء الاهرامات وبعض المعابد الكبرى بمصر . كل هذا ساعد على أن تقوم

عند هذه الشلالات مدن هامة مثل الفنتاين (أى جزيرة الفيلة عند أسوان) قرب الشلال الأول ، وبوهين وسمنة ، وبضع قلاع حربية قرب الشلال الثانى فى منطقة سمنـــا ، وهناك مدينة كرمة التاريخية الهامة قرب الشلال الثالث . . ونجد أيضا مدينة نبتة عاصمة (المملكة الكوشية الأولى) لمملكة النوبة العليا بالقرب من الشلال الرابع ، كما أن مروى عاصمة كوش الثانية تقع شمال الشلال السادس .

ونحن لا نؤكد بصفة قاطعة أن هذه الشلالات هى التى حددت قيام هـــذه المدن بالرغم مـــن أنهـــا كانت من العوامل لنشأة تلك المدن التجارية والسياســية والحربية.

وهناك أيضا مظاهر طبيعية أخرى أثرت على تاريخ هذه البلاد اثراً واضحا لابد من أن نتعرض لها ، منها المناخ ، اذ تقع تلك المنطقة ضمن النظام الجغرافى المعروف بالصحراء ، حيث تتضاءل فيها الامطار الى حد كبير بل تنعدم فى كثير من السنوات وتشتد الحرارة فى فصل الصيف حتى يبلغ المدى الاقصى أحيانا حوالـــى المائة والعشرين من الفهرنهايت وتشتد البرودة نسبياً فى فصل الشتاء وكثـــيراً ما كان الاهالى يوقدون النيران للتدفئة ليلا وفى الصباح الباكر .

أما منطقة النوبة العليا فتجد أن تلك البلاد تشبه كثيراً الاقاليم شبه الصحراوية حيث تهطل فيها أمطار قليلة فى الصيف . من هنا نجد أن اختلاف الامطار بين جنـــوب النوبة وشمالها واتساع مساحة الأراضى الصالحة للزراعة فى الجنوب كان من الاسباب التى أدت الى اضمحلال وفقر النوبة فى الشمال فى بعض العهود التاريخية وتحول مركز الثقل نحو الجنوب ، الى نبتة ومروى ودنقلا (النوبة العليا) .

وهكذا نجد أن من أهم الظواهر الطبيعية جريان النيل فى أكثر منـــاطق الوادى جفافا مما أدى الى تجمع السكان فى واديه وقيام عدد من المدن على امتداده مع وجود طرق القوافل البرية والنهرية . . ويتسع هذا الوادى احيانا فى بعض المناطق مثل دنقلا ثم يضيق فى بعضها الآخر كما هو الحال عند الشلال الاول والثانى . وكثيراً ما توجد رمال الصحراء على حافة النهر كما كان غرب وادى حلفا .

وكما ذكرنا من قبل نجد أن قلة الأمطار بل انعدامها قد أثر على نمو النباتات الطبيعية ولكـــن رغم ذلك نجد غابات السنط على الشواطىء الطينية والجزر حيـــث كانت لهذه

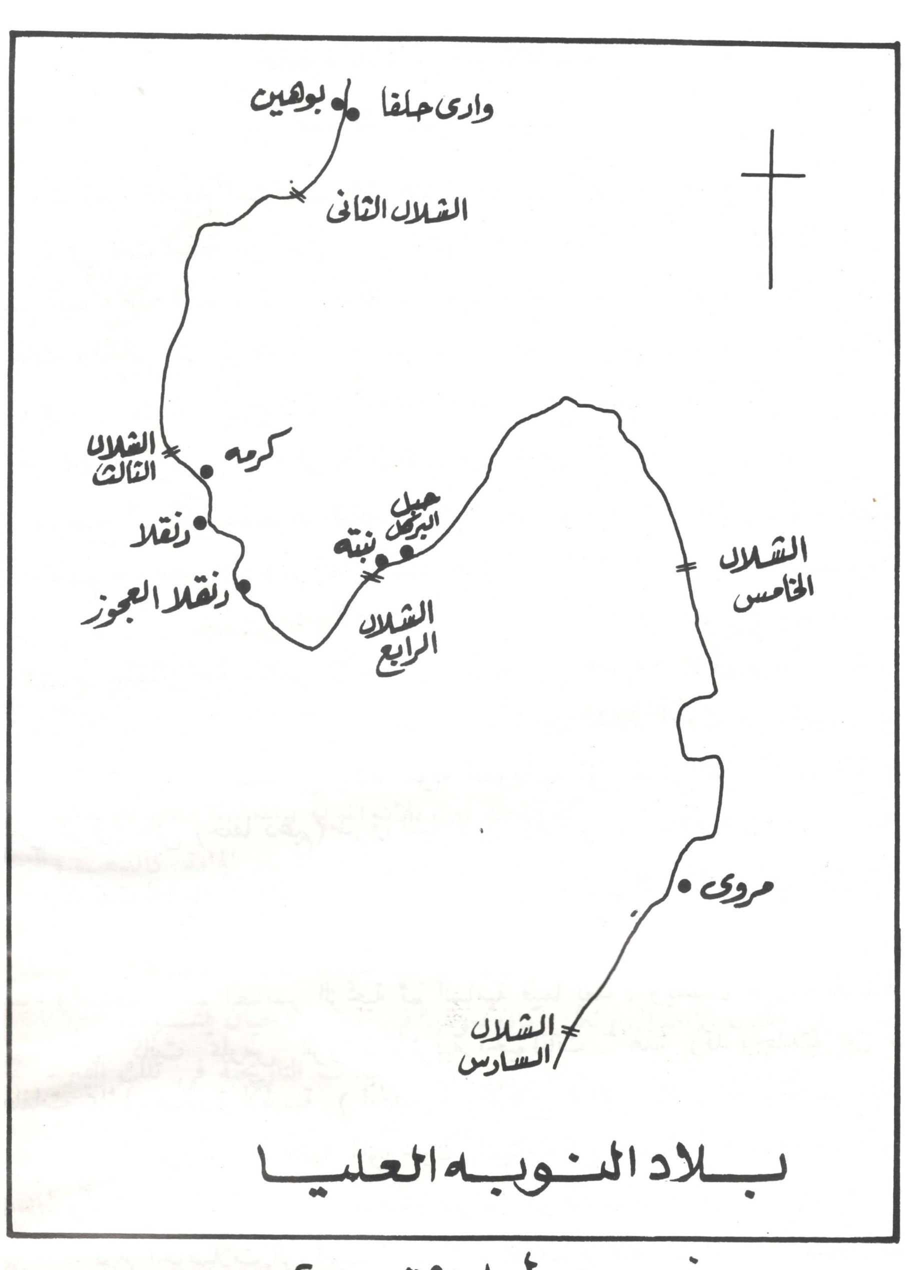
الاشجار أهمية خاصة فى بلاد النوبة ، إذ كانت أخشابها تستعمل فى بناء القوارب والسفن الشراعية منذ أقدم العصور وحتى قيام السد العالى ، كما نجد أن الحشائش التى تنمو بعد انحسار الفيضان كانت تستعمل علفاً للبهائم .

ولا ننسى أن الزراعة فى بلاد النوبة كانت من أهم الحرف ، حيث كانت محصورة على الوادى الضيق مستعملة وسائل الرى القديمة مثل السواقى والشواديف وكذلك الحياض التى لا زالت تستخدم فى منطقة شندى وكرمة . . كما تدل الآثار التى وجدت فى منطقة النوبة . كانت أهم المحصولات التى تزرع هى القمح والشعير والبلح والفاكهة واللوبيا والخضروات .

ولا بد أن نذكر أن بلاد النوبة وصحراءها كانت غنية بمعدن الذهب ونذكر على الأخص وادى العلاقى الذى كانت فيه مناجم غنية بالذهب وحتى مطلع القرن العشرين كان الذهب يستخرج من أم نبارى قرب المحطة رقم (٦) على الخط الحديدى بين أبى حمد ووادى حلفا كما جاء ذكره آنفا .

وخلاصة القول نجد أن بلاد النوبة كانت تتمتع بعدة خواص جغرافية أثرت على حضارتها ، فموقعها بين شمال الوادى وجنوبه جعلها مركزا وجسراً للأخذ والعطاء بالنسبة للقوافل التجارية والجيوش ومعبراً للأديان والثقافات . . كما أن جفاف مناخها قد حصر السكان على النيل وفى واديه الضيق الخصيب ، فظل السكان يعملون فى الزراعة منذ أقدم العصور حتى غطت الفيضانات أراضيهم .

ولعل صعوبة الأرض وطبيعة المناخ قد جعلت السكان يفكرون فى وسائل مختلفة لكسب العيش ، وفى فنون كثيرة برعوا فيها مثل بناء السفن وفن الملاحة والنقوش والفخار والنحت وغيرها من الفنون التى عرفها النوبيون منذ أقدم العصور.



وادى حلفا
بوهين
الشلال الثانى
الشلال الثالث
كرمه
دنقلا
دنقلا العجوز
جبل البركل
نبته
الشلال الرابع
الشلال الخامس
مروى
الشلال السادس
بلاد النوبه العليا

خريطه رقم (٢)

حضارة بلاد النوبة وعلاقتها

بالمملكة المصرية القديمة

منذ فجر التاريخ استوطنت بلاد النوبة جماعات كان لها الفضل فى ارساءأسس الحضارة فى تلك البقعة من النيل ، ثم امتدت فيما بعد الى أواسط السودان الحالى.. ويقسم العلماء هذه الجماعات التى سكنت أرض النوبة فى مهد التاريخ وما قبله على أساس المخلفات والمقابر التى تركوها ، ويرمز لكل مجموعة منها بحرف كحروف الف(أ) (A) أو (ب)(B) أو ج (C) للمجموعة الأولى والثانية والثالثة على التوالى ، ثم (س) (×) التى ظهرت فى بلاد النوبة فى العصور المتأخرة .

ووضح أن لكل مجموعة ثقافات وفنوناً معينة وطرقاً خاصة يمارسون بهاحياتهم تميز بعضهم عن بعض . . ولم يتفق علماء الحفريات على تاريخ ظهور هذه المجموعات ، فالبعض يرى أن المجموعة (أ) ظهرت فى الفترة التى تقع بين ٥٠٠٠ق.م.و ٣٠٠٠ق.م. بينما يرجح البعض الآخر ظهورها لحوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. وتعتبر السلالة (أ) من السلالات السمراء التى وجدت مخلفاتها بين الشلال الأول حتى جنوب وادى حلفا ، وتشمل هذه المنطقة فى بلاد النوبة السودانية كل القرى التى كانت تقع بين (فرص شرق) حتى (حلفا دغيم) شرق النيل وبين (فرص غرب وبوهين) غرب النيل .

وقد ثبت للعلماء أن هذه السلالة أى (أ) كثيرة الشبه بقدماء المصريين الذين كانوا يعيشون فى عصر ما قبل الأسر مما يدل على انتمائها للعنصر الحامى ، مثل المصريين القدماء واختلطت بهم العناصر الزنجية ثم السامية فيما بعد . ويستدل من مخلفات هذه المجوعة أنها كانت تمارس الزراعة وتربية الحيوانات . هذا وقد وجدت بين هذه المخلفات تماثيل صغيرة لآلهة (الخصوبة والانتاج) التى كانت معروفة فى مناطق أخرى من العالم ولذلك يربطها المؤرخون بالبيئات الزراعية فى منطقة البحر الابيض المتوسط وأراضى ما بين النهرين (الدجلة والفرات) وجنوب شرق آسيا ـ ولا نعرف على وجه الدقة نوع الحاصلات الزراعية آنذاك ـ الا أننا نرجح اشتمالها على القمح والشعير نظراً لا تفاق العلماء على أن وادى النيل والشرق الأوسط بوجه عام كانا من المناطق التى استأنست هاتين الغلتين .

ومن أهم الحيوانات المستأنسة أيضاً الماشية ، وكذلك الحمار الذى كان يمثل أهم وسائل النقل فى فجر التاريخ قبل ظهور الجمل . والجدير بالذكر أن علماءالحيوان واستئناسه يعتبرون بلاد النوبة هى المنطقة الاولى التى استؤنس فيها هذا الحيوان .

وتتميز حضارة هذه المجموعة (أ) بارتفاع مستوى الدقة الفنية الممثلة فىأعمالها اليدوية كما يتبدى فى النقوش الجميلة والفخار والحرف وأدوات الزينة والمصنوعات المعدنية . . وقد ذكرت البعثة الاسكندناوية التابعة لليونسكو فى أحد تقاريرهاأن مستوى مخلفات هذه المجموعة،لا نجد ما يضارعها فناً وروعة فى العصور القديمة، بالاضافة إلى ذلك برعت هذه المجموعة فى بناء السفن والملاحة النهرية ، وحتىيومنا هذا نجد عدداً كبيراً من ربان وملاحى السفن النهرية من أهل النوبة (لا سيما منالكنوز والمحس والدناقلة) .

وفى عام ٣٠٠٠ ق.م كانت الدولة المصرية المعاصرة لهذه المجموعة تتألفمن مملكة موحدة قوية تمتد حدودها جنوباً حتى جزيرة الفيلة (الفنتاين أو الشلال الأول).. وكانت وظيفة حاكم اقليم مصر الجنوبى ، بالاضافة الى صد غارات الجنوب هوتأمين طريق الفنتاين التجارى الذى سمى بالممر التجارى النوبى والذى يعتبر فى نظر بعضعلماء الآثار والتاريخ ومنهم (ركسى كيتنغ) ، أنه أول طريق تجارى منتظم فى العالمالقديم ، كانت تمر بهذا الطريق حركة نشطة بين بلاد النوبة والمملكة المصرية حيث كانت مصر تستورد من بلاد النوبة أو عن طريقها مجموعة من السلع الهامة كالذهب والنحاس والعاج وريش النعام والرقيق وجلود النمر وبعض الحيوانات التى كانت تعيش فىأواسط السودان واقليم السافنا وغابات أواسط أفريقيا حيث كانت التجارة تسير بانتظامبين القطرين فى أغلب الأحوال ولكن كان يعوقها فى بعض الأحيان نشوب الخلافات بين النوبيين وأصحاب القوافل ، ولعل من أهم الأحداث التاريخية فى تلك الفترة كانت الرحلات التى قام بها بعض المصريين لما وراء الشلال الأول إلى بلاد النوبة وجنوبها.

ومن أهم ما دوّن فى هذا الصدد ، رحلات الأمير حرخوف والذى كلفهملك مصر بالسفر إلى الجنوب ، فقام بأربع رحلات وجلب الكثير من خيرات تلك البلادإلى مصر ، وتدل السلع التى جلبها الى مصر على وصوله الى أواسط السودان الحالىبل جنوبه ويعتبر بذلك أن حرخوف هو أول رحالة يصل الى ذلك الجزء من أفريقيا وأول مكتشف ظهر اسمه فى التاريخ القديم

ولم يكن حرخوف الوحيد الذى قام بهذه الرحلات ، فهناك عدد منهم مثل الامير بيبى نخت ، غير أن رحلته كانت حربية وتجارية فى وقت واحد حيث أقام مجازر رهيبه فى بلاد النوبة مات فيها عدد كبير من السكان ووقع فى الاسر بعض امراء النوبة.

ولم يعرف الكثير عن ممالك مصر بعد هذه الفترة ، اذ سادت الخلافات فى مصر وتمزقت اوصال الدولة الى ممالك صغيرة ، ويربط المؤرخون بين هذه الاحداث وبين ما طرأ من تغيير واضح فى بلاد النوبة ، كما يتمثل فى مخلفات بوهين ، اذ لوحظ انحطاط واضح فى مستوى الاعمال اليدوية والصناعات والأوانى الفخارية فى طريقة الدفن وبناء المقابر عن تلك التى كانت تمارسها المجموعة (أ) . هذا مما دعا المؤرخون للاعتقاد بظهور مجموعة ثقافية جديدة اطلقوا عليها اسم المجموعة (ب) .

ولنقف قليلا ونذكر فى ايجاز عن الحياة فى بلاد النوبة فى عهد الثقافات الاولى (أ و ب) قبل الانتقال الى المجموعة (ج) . عاش النوبيون مثل غيرهم من سكان العالم المتقدم فى ذلك الزمان . اذ عرفوا الزراعة واستئناس الحيوان والنبات واستعملوا الالات الحجرية والمعدنية واحترفوا الصيد والقنص .

وكما ذكرنا آنفاً كانت المقابر والادوات والاوانى الفخارية التى عثر عليها مشابهة لما وجد فى مصر التى كانت تربطهم بها علاقات تجارية وثقافية .

المجموعة الثقافيـــة (ج) :

يعتقد أن المجموعة الثقافية (ج) كانت قد استوطنت بلاد النوبة فى الفترة مابين ٢٤٠٠ و ١٦٠٠ ق.م .وهى تنتمى كما يذكر الدكتور مصطفى مسعد (استاذ التاريخ بجامعة القاهرة) الى العنصر الحامى الذى توجد به بعض الدماء الزنجية . ولم يتــفق العلماء على الموطن الاصلى الذى تنتسب اليه هذه المجموعة . فالبعض يــرى أنها تتألف مــن مجموعات رعوية اضطرت الى النزوح الى هذه المنطقة من الجنوب نتيجة لضغط جماعات أقوى منها ، كما استدل البعض من وجود أعمدة حجرية بالقرب من مقابر هذه المجموعة ، نقشت فيها صور أبقار ، على أنها وفدت من غرب الســودان . ولكن يستبعد هذا الرأى لصعوبة عبور الصحراء بصحبة الماشية ، ولكن الارجح أن هذه المجموعات ربما وفدت بماشيتها قرب اقليم السافنا الى النيل ، ثم اتجهت نحو الشمال الى ارض النــوبة

. . وتختلف مظاهر هذه المجموعة عن المجموعتين السابقتين (أ و ب) وتتميز بوجود مظاهر الحضارة المصرية جنبا الى جنب مع مظاهر الحضارة المحلية . ويرجع السبب فى ذلك لدخول هذه المجموعة فى حروب مع المصريين فى عصر المملكة الوسطى ، انتهت باحتلال المصريين لبلاد النوبة حتى الشلال الثانى .

وإتسمت فترة الحكم المصرى بقيام عدد كبير من القلاع الحربية الضخمة التى قام بعض الملوك المصريين بتشييدها ، ويوجد منها بين سمنة والشلال الأول كما يذكر البروفسور أمرى ، (بجامعة لندن) ، ما يزيد على إثنتى عشر قلعة ، نذكر منها قلاع سمنة (شرق وغرب وجنوب) وصرص ، ومرقيسا وبوهين ود بنارتى و كوبان وسره شرق .

وهذه القلاع تعتبر من أضخم (واقوى التحصينات الحربية التى شيدها الإنسان فى العصور القديمة ، حيث لا يوجد ما ينافسها فى العالم القديم ، وقصد من تشيدها الأغراض الآتية :

(أ) تأمين إستغلال موارد النوبة مثل الذهب وحجارة البناء والسنط .

(ب) حماية طرق القوافل البرية والنهرية التى كانت تربط مصر بجنوب الوادى وأواسط إفريقيا ، خاصة وهى مصدر كثير من الخيرات التى كانت تحتاجها مصر .

(ج) حماية مصر من خطر غارات الجنوب .

فأستتباب الأمن على حدود مصر الجنوبية أمر كان يحرص عليه ملوك مصر فى كافة عهودها ، ولم تزل الزراعة والتعدين تمثل أهم مظاهر النشاط البشرى فى هذا الإقليم ، فقد إهتم المصريون إهتماماً بالغاً بتعدين الذهب فكان يستخرج من منجم وادى العلاقى وينقل منها بالحمير إلى ميناء كوبان النهرى ، وعند كوبان أقيمت قلعة من أضخم القلاع النيلية ، مبنية من(الطوب الأخضر) يبلغ إرتفاع سورها ٢٦ قدماً وسمكه عشرين قدماً.

ومن ميناء كوبان كانت السفن تنقل الذهب شمالا إلى مصر ، ولم تعرف الكميات التى نقلت. إلا أننا نجد أن عدد العمال الذين كانوا يعملون فى المناجم وفى عمليات النقل

كان ضخماً مما يؤكد ضخامة الإنتاج . . وكان معظمهم إن لم يكن جميعهم من النوبيين ويعتقد بعض المؤرخين أن النوبيين ربما كانوا أول من عملوا بحرفة التعدين على نطاق واسع في العالم القديم .

والجدير بالذكر أن أول خريطة عرفها التاريخ مرسومة على ورق البردى كانت توضح الطريق من النيل إلى أحد مناجم الذهب ، وهذه الخريطة محفوظة الآن في متحف تورينو بأيطاليا .

أن إهتمام مصر بالنوبة في هذه الحقبة أي العصر المصري القديم واضح من الغزوات التي قامت بها ، ويقول الدكتور شوقي الجمل أن أول مرة يذكر فيها تاريخ النوبة في الدولة القديمة ، كانت في عصر الملك زوسر من الأسرة الثالثة . . إذ عثر على لوحة من الجرانيت سميت (لوحة المجاعة) تتحدث عن مجاعة حدثت في مصر حوالى عام ٢٩٠٠ ق . م . وإستمرت زمناً طويلا ، مما أدى إلى لجوء الملك زوسر إلى محصولات بلاد النوبة لتخفيف حدة المجاعة .

وهناك ما يدل على أن الغزوات العديدة التي قام بها ملوك الأسر المصرية القديمة على بلاد النوبة ، كان الغرض منها إستغلال مواردها المعدنية والزراعية ، وبالإضافة إلى الذهب فقد برهنت حفريات بوهين على أن عدداً كبيراً من المصريين قد أقاموا فيها (أي في بوهين) وكانوا يعملون في صهر معدن النحاس .

وفي عهد الملك (ميرن رع) كان الإتصال بالنوبة على أوثق حلقاته وقد ظهر إسم إثنين من الأمراء الذين قاموا برحلات وإتصالات وثيقة ببلاد النوبة ، أحدهما يدعى يوني والآخر حرخوف (الذي جاء ذكره سابقاً) أما يوني فقد عهد اليه بالقيام ببعض المهمات منها تجنيد نوبيين في الجيش المصري ، مما يدل على أن نفوذ المصريين في بلاد النوبة أخذ يزداد يوماً بعد يوم . . وكان يوني هذا أحد حكام جنوب مصر وعهد اليه أيضاً بتحسين المواصلات مع بلاد النوبة وذلك بشق خمس قنوات لعبور الشلال الأول رغم أن إختراقه كان صعباً كما أوردنا .

وجاء في تقرير كتبه يوني في هذا الصدد :

أرسلني جلالة الملك (مرن رع) لحفر قنوات لأضع عندها ثلاث نقالات وأربعة قوارب

تجر بالحبال وذلك لنقل حجر الجرانيت شمالا لبناء الهرم الملكى فى ممفيس وخشب السنط من بلاد واوات (النوبة السفلى) .

أما حرخوف الذى جاء ذكره سابقاً فقد كتب سجلا لرحلاته وهو منقوش على الصخر فى مقبرته بأسوان جاء فيه :—

« أرسلنى جلالة الملك (مرن رع) إلى يام لفتح الطريق إلى ذلك القطر ففتحته فى سبعة أشهر ، وأحضرت كل المحاصيل التى تحصد من هذه المنطقة ومن أجل هذا العمل حصلت على الكثير من المدح مما أقنع سيد القطرين جلالة الملك لإرسالى مرة أخرى إلى هذا القطر فسرت فى طريق جزيرة فيلة ووصلت (يام) وعدت بعد أن فتحت هذه الأراضى ولم يفعل مثل هذا أى قائد آخر ذهب إلى يام من قبل » .

وفى رحلته الأخيرة ذكر حرخوف أنه عاد إلى مصر ومعه ٣٠٠٠ حماراً محملة بالبخور والأبنوس وزيت الكافور والحبوب وجلود النمر والعاج . . وكانت هذه الرحلة تجارية إذ كان المصريون يحرصون على الحصول على بعض موارد السودان (وسطه وجنوبه وغربه) بالإضافة إلى موارد بلاد النوبة التى ذكرناها . وتشمل هذه الموارد : الذهب (من النوبة) والأبنوس والبخور والمر (بكسر الميم) الذى كان يستعمل فى تحنيط الأجسام (كل ذلك من الجنوب) .

وفى مقابل هذه السلع كان المصريون يصدرون إلى بلاد النوبة وجنوبها عدداً من المصنوعات والعقود والعطور والعسل والمنسوجات وورق البردى والأوانى النحاسية والأسلحة .

ظل هذا النشاط التجارى على هذا المنوال فى معظم العهود القديمة والوسطى بالرغم من التقلبات السياسية والحروب التى كانت تدور بين بلاد النوبة وشمال الوادى .

ومجمل القول أن العصر التاريخى القديم قد إتسم بقوة العلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة ، وكان التأثير المصرى واضحاً على ثقافة بلاد النوبة ، كما هو واضح أيضاً على حياة السكان اليومية وأحوالهم الإقتصادية والسياسية إلى أبعد الحدود . . إلا أن هذه العلاقات قد تدهورت فيما بعد كما سنرى .

النوبة فى عهد المملكة المصرية الوسطى وصلاتهم بالمصريين

يمكننا أن نلاحظ فى ذلك العهد والعهود اللاحقة أن تاريخ النوبة كان يرتبط إرتباطاً وثيقاً بمصر .

ولكن بأنهيار الدولة المصرية القديمة إجتاحت مصر إضطرابات إستمرت زمناً طويلا وأدت فى النهاية إلى تمزيق جسد الدولة المصرية ، هذا مما أدى إلى أن تستقر المجموعة (ج) فى بلاد النوبة ، وهى كما ذكرنا حامية الأصل ذات صلة بالعنصر الزنجى ، كما نجدهم يختلفون عن المجموعات (أ) و (ب) فى وسائل كسب عيشهم حيث كانت حضارتها رعوية ، فقد دلت على ذلك رسومات الجدران والفخار كما يبدو أن أعداداً كبيرة من الماشية كانت تعيش فى بلاد النوبة آنذاك . وليس معنى ذلك أن المنطقة كانت تتمتع بأمطار كافية للماشية فى ذلك الحين ، (إذ أن الماشية لا تعيش إلا فى الأقاليم التى التى يتوفر فيها العلف الذى ينمو عادة فى المناطق التى تتوفر فيها الأمطار مثل إقليم السافنا ذات الحشائش الغزيرة) ومعلوم أن بلاد النوبة تقع فى إقليم الصحراء الجاف حيث يزرع علف البهائم بكميات متوفرة فى الجروف والجزائر النيلية بعد إنحسار الفيضان) . (١) .

وفى نهاية الألف الثانى ق . م تقريباً كان أهل النوبة ينقسمون إلى :

١ ـ أهل واوات (فى النوبة السفلى : بين الشلال الأول والثانى) .

٢ ـ وأهل كوش (فى النوبة العليا : بين الشلال الثالث والرابع) .

وقد عاش كل من أهل واوات وكوش فى سلام ووئام غير أن صلتهما بمصر كانت تسودها التقلبات والأزمات الحادة أحياناً ، ولكن عندما إستقرت الأحوال فى شمال الوادى ما بين ٢٠٥٢ ـ ١٩٩١ ق . م . تقريباً ، بدأت مصر تبسط سلطتها نحو الجنوب حيث قامت بعدة غزوات كانت أسبابها تكمن فى إعتداءات النوبيين على القوافل التجارية المصرية . لقد تكرر ذلك حتى نتج عنه إرسال حملات حربية من مصر لحماية

(١) وقد ظل اهل المنطقة يزرعون العلف بهذه الطريقة حتى قيام السد العالى الذى ادى الى غرق أراضيهم ومغادرتهم للمنطقة ..

قوافلها رغم إضطراب الأحوال فى بعض أقاليم مصر والتى أدت إلى فقدانها السيطرة على بلاد النوبة ، فأنتابها ضعف سياسى وإقتصادى وبدأ مركز الثقل الحضارى ينتقل تدريجياً نحو الجنوب ، الأمر الذى أفضى إلى ظهور قوة جديدة فى وادى النيل جنوبـــى الشلال الثانى والثالث ، وهى مملكة كوش .

مملكـــة كوش :—

بالرغم من أن الحديث عن مملكة كوش ، عن مدى قوتها وبسط سلطانها فـــى الجنوب والشمال وإمتداد نفوذها سيأتى مفصلا فيما بعد ، إلا أنه يجدر بنا أن نذكر شيئاً من باب التقديم الموجز .

يقول الأستاذ عثمان عبد الله السمحونى فى بحثه « نبتة ومروى فى بلاد كوشـــس » المنشور بالكراسة رقم (٧) من أبحاث شعبة أبحاث السودان بجامعة الخرطوم « إن إصطلاح (كوش) تسمية للمملكة النبتية المروية فى شمال السودان ، وأن المملكة الكوشية مملكة نهرية ككل الممالك القديمة على النيل — وقد كان للمدن الكوشية — كرصيفاتها من المدن المصرية — شأن يذكر كمراكز سكانية وادارية ودينية، غير أنه يجب أن نضع فى الاعتبار أن الحضارة الكوشية لم تبلغ شأو الحضارة المصرية من ناحية والعمران » .

فابتداء من القرن العاشر قبل الميلاد بدأ اقليم واوات (بين الشلال الاول والثانى) فى الاضمحلال وأخذ سكانه فى التناقص وربما يعزى ذلك لاسباب منها :

أولا : نزول القحط بهذا الاقليم نتيجة لانخفاض النيل لسنوات متتالية ، الشىء الذى أثر على الرى وادى الى تدهور الزراعة وفقر المراعى ، مما دعا الســكان الى الهجرة نحو الجنوب الى اقليم كوش بين الشلال الثالث والرابع حيث تتسع وتتوفر الاراضى لا سيما فى اقليم دنقلا . ولسهولة المواصلات النهرية فى المنطقة بين الشلال الثالث والرابع .

ثانيا : ضعف المملكة المصرية والذى أثر على المرافق الاقتصادية فى بلاد النوبة. اذ ندرت القوافل التجارية مما أثر على الاقليم تأثيراً اقتصاديا سيئا .

هكذا قامت وازدهرت مملكة كوش فى أرض النوبة العليا ، حيث اقترن اسمها بأقدم

الحضارات الافريقية . ولكن لم تحظ هذه الحضارة بالقدر الذى تستحقه من الاهتمام، ويعتقد البروفسـور شينى أن عدم الاهتمام الكافى بهذه الحضارة يرجع الى الموقع الجغرافى النائى لهذه البلاد بالنسبة لمراكز الحضارة السائدة آنذاك (مصر وحوض البحر المتوسط واراضى ما بين النهرين : « دجلة والفرات ») . . كما كان الكثيرون يعتقدون أن أرض كوش لم تكن الا منطقة تسكنها جماعات بربرية تشكل جزءا جنوبيانائيامن الامبراطورية المصرية القديمة ، وانها لم تقدم للعالم اى شيء يذكر .

وقد قام البروفسـور شينى وغيره من المؤرخين فى العهد الأخير باصدار العديد من الرسائل وبعض المؤلفات لدحض تلك الافكار والقاء الضوء على إحدى الحقب التاريخية الكبرى فى وادى النيل والتى قدمت لافريقيا بل للعالم الكثير . . وقد ازدهرت بعـض المدن الهامة فى كوش ونذكر منها على سبيل المثال كرمة ونبتا ومروى ، وفى العهـد المسـيحى ظهرت دنقلا.

وتقع كرمة على الضفة اليمنى من النيل قرب الشلال الثالث وتحيط بها أراض زراعية خصبة تروى على طريق الحياض التى لاتحتاج إلى آلات رافعة — وقام البروفسـور رايزنر بحفريات هامة فى هذه المنطقة القى فيها الضوء على حضارتها .

وقد اختلف العلماء حول نشأة كرمة وتاريخها وأهميتها فى العهد القديم .فاعتقد البعض ومن ضمنهم رايزنر ، أنها تمثل مستعمرة مصرية فى بلاد النوبة كما كانت مقراً للحكام المصريين واسمها كان (اينبو أمنو محت) .

ويرى البروفسـور رايزنر أن كرمة كانت مستعمرة تجارية مصرية مسلحة ، قصد من انشائها اولا : ضمان السيطرة على مناجم الذهب فى وادى العلاقى التى كان يقوم بالعمل فيها عمال نوبيون من منطقة كرمة بالذات . . ثانيا : تأمين الطرق الجنوبية ، والتى كان يرى أنها انعزلت أخيراً من مصر فى زمن الهكسـوس مما سـهل على النـوبيين الاستيلاء عليها .

ويتفق آركل مع رايزنر فى أن كرمه كانت مستعمرة مصرية ، كان يقيم فيـها الحكام المصريون ، كما كانت مركزاً تجاريا وصناعياً هاما فى ذلك الاقليم ، وقدبنى العالمان المؤرخان رأيهما على وجود كثير من الاوانى والادوات المصرية وبعض التماثيل

مثل تمثال الملك امنحوتب والملك (سونسرت الثالث) ووجود بعض المصنوعات الذهبية والحديدية المصرية الصنع واعمال العاج والخزف بالاضافة الى نظام المقابر . واعتقد أن بعض المصنوعات كالفخار مثلا تمت صناعته بواسطة المصريين الذين استخدموا المواد المحلية . . ولكن لا يتفق البروفسور أمرى مع هذين المؤرخين ، اذ يعتقد أن هناك احتمالا فى أن كرمة كانت عاصمة وطنية لاحدى حكومات كوش وأن المخلفات والمصنوعات المصرية التى وجدت فيها تمثل جزءا من الغنائم التى تم الاستيلاء عليها فى الغزوات التى كان يشنها الكوشيون على المراكز المصرية .

وقد أيد هذا الرأى عدد من المؤرخين الذين استبعدوا أن تكون كرمة مركزاً تجاريا مصريا ، فقد كانت الحدود المصرية عند سمنه التى تقع على مقربة من الشلال الثانى شمالا ، بعيدا عن كرمة .

اما الدكتور شوقى الجمل فانه يستنتج من المخلفات والمقابر (أن الحفريات التى اقيمت فى كرمة اظهرت حضارة لها ميزاتها الخاصة المتأثرة بالبيئة المحلية) . « والمعتقد أن كرمة تمثل عاصمة المستعمرة التجارية التى أسسها ملوك الأسرة الثانية عشر المصرية فى هذه المنطقة ، فقامت هناك ونمت حضارة عريقة تأثرت بالظروف الجغرافية وبالثقافات المحيطة ، وكان نواة هذه الحضارة حاكم بلاد النوبة الذى عينه الفرعون المصرى» وفى النهاية نجد أن الرأى الذى أجمع عليه معظم المؤرخين هو أن كرمة كانت عاصمة لا حدى حكومات كوش .

ومهما كان من أمر نشأة كرمة لا بد أن نذكر هنا أن حضارة عمرانية قامت فيها لها صلة وثيقة بكوش والمملكة المصرية . . ونجد أن بعض الفتور قد أصاب العلاقات التى كانت قائمة بين مصر وبلاد النوبة حتى جاء ملوك الاسرة الحادية عشر حيث بدأوا يستأنفون علاقاتهم الاقتصادية مع النوبة فانتعشت العلاقات التجارية وكذلك التعدين، الى أن بدأت المناوشات بين الدولتين مع بداية الاسرة الثانية عشر حيث قامت مصر بالعديد من الحملات على بلاد النوبة . . وكانت الحملة الاولى فى عهد الملك امنمحت حوالى عام ١٩٧٠ ق .م. وكان الغرض من هذه الحملات استغلال موارد النوبة وجعلها منطقة فاصلة بين المملكة المصرية وبلاد كوش . واقيمت حصون جديدة ، كما قاموا بتدعيم

وتقوية الحصون القديمة فى المنطقة .

وفى عهد امنمحت الثانى ساد الهدوء والسلام ، ووجه الجميع جهودهم نحو استغلال مناجم الذهب . فارسل أمنمحت أحد ضباطه للعمل فى مناجم الذهب مستخدما العمال الوطنيين المحليين . فكان الشباب منهم يعملون فى استخراج المعدن بينما كان يعمل كبار السن منهم باعمال تنقية المعدن المستخرج .

أما الملك المصرى سنوسرت الاول فقد حرص على اقامة قلاع جديدة فى كرسكو وغيرها وبعده قام الملك سنوسرت الثانى بتقوية الحصون وذلك لمجابهة القبائل النوبية التى ظلت تهدد الحدود المصرية الجنوبية . ومن هذا المنطلق بدأت الهجمات المصرية تتوالى ضد الهكسوس الذين غزوا مصر فى الشمال والكوشيين فى الجنوب ، الامر الذى أدى بالملك سنوسرت الثالث أن يوجه اهتمامه الى تسهيل المواصلات حتى يتمكن من ارسال الجيوش والامدادات لمواجهة الاضطرابات التى كانت قائمة فى بلاد النوبة ، خاصة القبائل الثائرة والمتمردة تتجمع حول مناطق متعددة تثير فيها الشغب والاضطراب ، فلا تلبث حين تتصدى لها الحملات الأن تتفرق لتتجمع فى مكان آخر ، وقد قامت خمس حملات حربية فى زمن سنوسرت الثالث حتى نجد أنه فى احدى هذه الحملات أقام سنوسرت لوحة نقش عليها النص الاتى :-

« الحد الجنوبى هو الذى توصل اليه ملك القطرين فى السنة الثامنة من حكمه . ليمنع أى نوبى من أن يتخطاه الى الشمال سواء أكان ذلك عن طريق البر أو النهر ، اللهم الا اذا أتى للتجارة أو لاداء مهمة فى مصر ، وفى هذه الحالة يقابل النوبى بكل اكرام ، ولا يسمح بأى حال من الأحوال لسفينة من سفن النوبة أن تمر بسمنة متجهة شمالا على مدى الأيام .

وفى العام السادس عشر من حكمه اضطر سنوسرت الثالث أن يزحف بجيشه لملاقاة تجمعات جديدة من الكوشيين الذين زحفوا شمالا حتى اقتربوا من حصن سمنة ، فهزمهم وأقام لوحة ثانية بالقرب من قلعة سمنة جاء فيها :

لوحة أقيمت فى السنة السادسة عشر من عصر الملك سنوسرت الثالث ، وذكر فيها أن الملك أقام حصنا لطرد النوبيين لكى لا يتوغلوا الى الشمال الا طلبا

للتجارة أو لاداء أمر هام . ثم جاء فيها :ـ

« لقد زدت مساحة بلادى على ما ورثته ، وأنى ملك يقول وينفذ ، وأنى طموح للسيطرة ، وما يكتنف صدرى تفعله يداى ، أهاجم من يهاجمنى حسب ما تقتضيه الاحوال ، الشجاعة هى العزيمة ، والجبن هو التخاذل . على كل ولد يأتى من صلبى أن يحافظ على الحدود التى وصلت اليها ، وأن يحافظ على تخوم بلادى، فهو ابن لى أما من يتخلى عنها ولا يحارب دفاعاً عن سلامتها فهو ليس ابنى ، ولم يولد من ظهرى انظر فاننى قد امرت باقامة تمثال لشخصى عند هذه الحدود التى وصلت اليها وانى أرجو أن تنبعث فيكم الشجاعة من أجلها وتحاربون للمحافظة عليها » .

كانت لانتصارات سنوسرت الثالث فى هذه البلاد وحروبه من أجل بلاده ودفاعه عنها مواقف عظيمة فى تاريخها حتى أن اسم سنوسرت أصبح على كل لسان، وظل ذائع الصيت حتى العصر الرومانى فملأت شهرته الآفاق وعرف لدى الرومان باسم سيزوستريس ،، .

وفى آخر ايام الاسرة الثالثة عشر حوالى ١٨٠٠ق.م. نزح الى شمال مصر عند الدلتا جماعة سامية من فلسطين عرفوا بالهكسوس ، ولضعف الاسرة الثالثة عشر نجح الهكسوس فى غزوتهم فاحتلوا مصر ، واصبحت بالتالى القوة المسيطرة على النيل مقسمة كالآتى :

١) الدلتا ومصر الوسطى : فى يد الهكسوس

٢) مصر العليا وصعيد مصر : فى يد ملوك مصر ومقرهم العاصمة طيبة .

٣) بلاد النوبة فى يد الكوشيين .

وباحتلال الهكسوس لشمال مصر ضعف مركزها فى بلاد النوبة فتمكن النوبيون من احتلال وتخريب بعض القلاع المصرية الكبيرة مثل بوهين التى أحرقت تماماً.

ويقول البروفسور أمرى انه فى احدى الحقب قام تحالف بين ملوك الهكسوس ورؤساء كوش . واستمرت هذه الحالة حتى الاسرة السابعة عشر (١٦٠٠-١٥٧٠ق.م.) واصبحت مصر شبه محصورة بين الهكسوس فى الشمال والنوبة فى الجنوب حتى قال الملك المصرى كاموس :ـ

,, اننى اجلس بين حاكم آسيوى فى الشــمال ونوبى فى الجنوب ، وكل منهما يحتفظ بقطعة من أرض مصر ، فلا استطيع أن أزور ممفيس . وأن أعظم أمنياتى هــو تحقيق استقلال مصر وتحريرها من الآسيويين ،، .

وقد تولى الملك كاموس حركة تحرير بلاده ضد أعدائه الهكســوس فى الشمال والنوبيين فى الجنوب . أما خلفه أحمس فهو الذى اكمل تخليص مصر من الهكســوس واحتلال أرض النوبة فى الجنوب، وهو ـ اى أحمس ـ أول ملوك الاسرة الثامنة عشر حيث نجد أن الاسرة الخامســة عشر والســادســة عشر والســابعــة عشر كانوا من الهكســـوس .

النوبة والاسرة المصرية الثامنة عشر
من الدولة المصرية الحديثة

سبق ان ذكرنا أن الملك أحمس كان أول ملوك الأسرة الثامنة عشر ، وقدنجح فى طرد الهكسوس من مصر ثم اتجه جنوبا واخضع بلاد النوبة التى كانت تقاوم سيطرة حكام مصر على الدولة ، حين قال : ,, رجعت وقلبى ملىء بالفرح لانتصاراتى المتعددة.. لقد هزمت شعوب الجنوب والشمال . ،، وهكذا تمصرت بلاد النوبة اداريا وثقافيا ودينيا ، وانتشرت عبادة الاله آمون ، اذ اتخذت دولة كوش (آمون) إلها لها .ويعتقد أن كهنة آمون قد ساعدوا على نشر الثقافة المصرية فى كل من (كوش) و(واوات).

ومما ساعد على التمصير أيضا هجرات المصريين الى بلاد النوبة منذ عهد الهكسوس ومن ثم نجد أن الحدود الجنوبية لم تكن آمنة حيث أن الكوشيين ظلوا يثورون فى وجه حكامهم المصريين من وقت لآخر ، حتى قام كل من الملك امنحتب الاول وتحتمس الاول بعمليات حربية ضد الكوشيين . ونجح تحتمس الأول فى مد حدوده قرب الشلال الثالث وأصبحت عاصمة النوبة السفلى - أى واوات - عنيبة التى ظلت مركزاً لادارة منطقة النوبة المصرية حتى عهد قريب قبل قيام السد العالى . وفى عهد الملك امنحتب الثانى امتدت حدود مصر الى الشلال الرابع حيث أقام فيه حامية للاشراف على الطرق التجارية وحماية القوافل الغادية والرائحة على طوله . . كما وجدت له آثار فى بوهين (غرب حلفا) وفى جزيرة صاى . . هذا ولما لم تهدأ ثورة الكوشيين بعد ، نجد أنه فى عهد تحتمس الرابع ارسل الملك حملة للقضاء على الثوار النوبيين مما أدى الى أن يسود الهدوء بلاد النوبة الى حين ، وظلت قوافل الثقافة المصرية على أشدها . كل هذا والمنطقة تدفع الجزية السنوية لخزانة الدولة المصرية و كان ذلك فى عهد الملك امنحتب الرابع (اخناتون) .

النوبة وعهد الأسرة التاسعة عشر

(١٣٥٠ – ١٢٠٥ ق . م .)

كان أول ملوك هذه الاسرة (حور محب) ، ولعل أشهر ملوكها هو رمسيس الثانى الذى يقال أنه (فرعون سيدنا موسى عليه السلام) والذى أشتهر بحروبه ضد الحيثيين والتى انتهت بمعاهدة صلح وبزواجه من ابنة ملك الحيثيين ، ثم بعدها استطاع ان يتفرغ لشئون الجنوب . وقد اقيم فى عهد رمسيس الثانى عدد من المعابد الضخمة (بين الشلال الاول والثانى) اصبحت فيما بعد مراكز مصرية دينية وثقافية ، وأهم هذه المعابد وأكبرها :-

١ – بيت الوالى

٢ – معبد جرف حسين[1]

٣ – معبد وادى السبوع

٤ – معبد الدر

٥ – معبد ابى سمبل

وكان الأخير أى أبو سمبل أشهر هذه المعابد ، حيث أقيم فى الصخور الرملية فى حدود السودان شمال وادى حلفا بالضفة الغربية ويعتبر من أضخم وأروع الآثارات على النيل ، تتجه اليه أنظار الزوار حيث يقف تمثالان شامخان لرمسيس الثانى على يمين المدخل وعلى يساره ، ويبلغ ارتفاع كل منهما عشرين مترا ، وفى داخل هذا المعبد نجد حجرات متعددة ونقوشا تزين الجدران مصورة المواقع الحربية التى قام بها رمسيس ، الأمر الذى أدى الى أن تقوم هيئة اليونسكو بانقاذ المعبد من الغرق بعد مساهمة كثير من دول العالم . (ويعتبر انقاذ أبى سمبل الذى كلف ملايين الجنيهات عملا هندسيا رائعا ، اذ قطع المعبد إلى اجزاء نقلت وأعيد تشييده فوق تل لاتقربه المياه ، حتى يتمكن الزوار من مشاهدته) .

أما رمسيس الثالث فقد كان ثانى ملوك الاسرة العشرين (١٢٠٠ – ١٠٩٠ق . م) فقد تمكن من القضاء على الخطر الذى كان يهدد مصر من جهتين . . حيث كان

(١) أنظر الى الخريطة رقم (٣) . .

اسوان
الفنتين
الشلال الاول
كلابشه
جرف حسين
كوبان
المحرقه
وادى السبوع
كرسكو
الدر
ابريم
عنيبة
ابوسنبل
بلانه
بوهين
وادى حلفا
الشلال الثانى

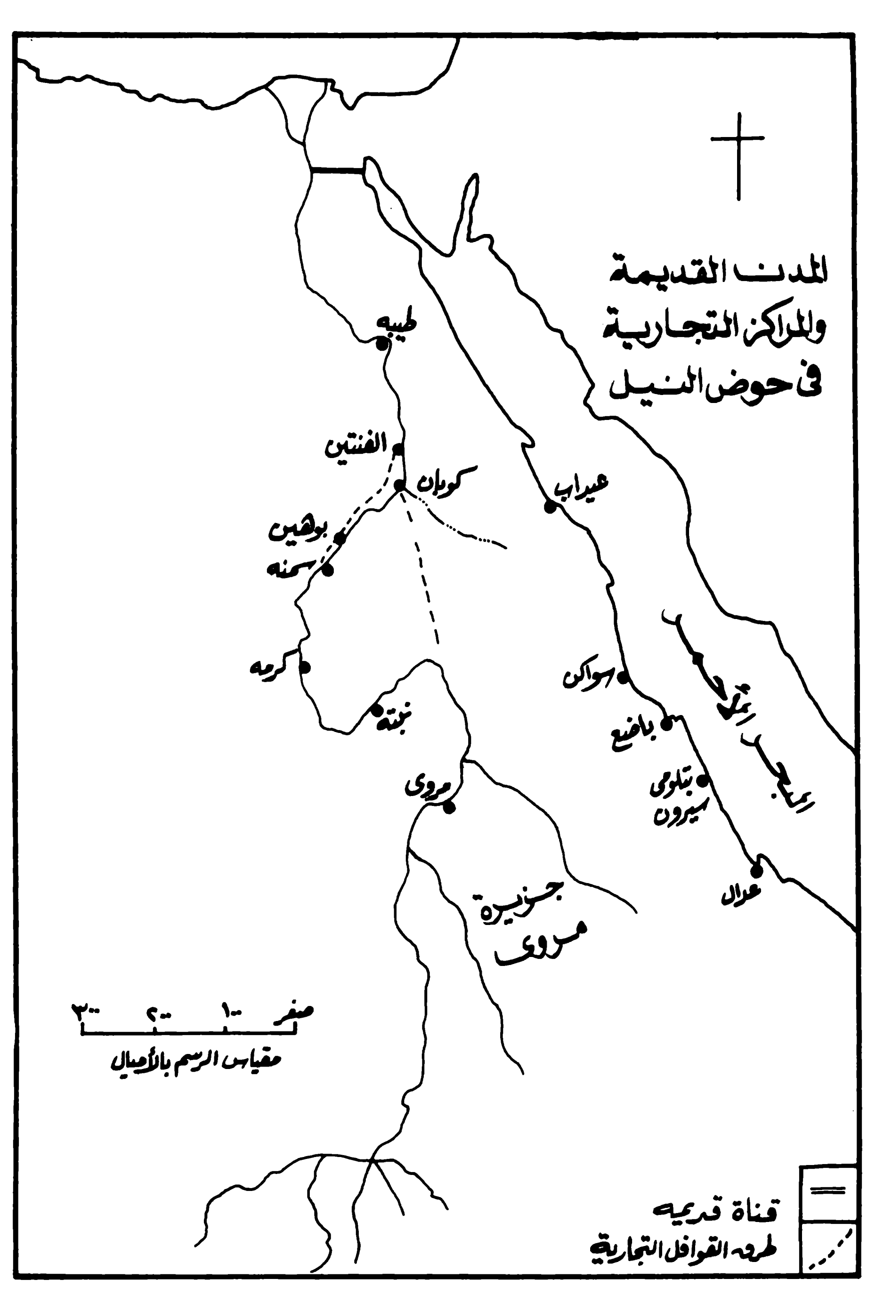
بلاد النوبة السفلى
بين الشلال الأول والثانى
ومواقع معابد رمسيس الثانى

خريطه رقم (٣)

الليبيون يهددونها من الشمال الغربى للبلاد ، كما كان يهددها سكان الجزر الايجية الواقعة على البحر الابيض جنوب اليونان . وقد تمكن رمسيس الثالث من القضاء على الخطر الموجه لمصر من الجهتين ، كما نجح فى بسط نفوذه على تلك الجزر وعلى ليبيا ايضا .

ولكن بعد رمسيس الثالث ضعفت قبضة المصريين فى بلاد النوبة فاهتزت بذلك السلطة مما أدى الى الانحلال والتفكك فى كيان الدولة ، وبالتالى ازداد نفوذ كهنة آمون ، حتى أن بعض الناس كانوا يظنون أن الكاهن أعظم شأنا من فرعون نفسه .

ولا شك أن ضعف مراكز الفراعنة قد ترك آثاراً سيئة فى وجه البلاد خاصة الحالة الاقتصادية ، حيث حلت بمصر أزمة اقتصادية حادة إلا أن كهنة آمون كانوا يتمتعون بثروات كثيرة ، إذ كانت تصلهم هبات سخية من الفراعنة وكبار رجال الدولة .


المدن القديمة
والمراكز التجارية
فى حوض النيل
طيبه
الفنتين
كوبان
بوهين
سمنه
كرمه
نبتة
مروى
عيذاب
سواكن
باضع
بتلومى
سيرون
عدال
البحر الأحمر
جزيرة
مروى
صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠
مقياس الرسم بالأميال
قناة قديمه
طرق القوافل التجارية

خريطة رقم (٤)

الاحوال الادارية والاقتصادية فى بلاد النوبة

فى عهد الدولة الحديثة

فى أيام الأسرة الثامنة عشر ألقت الدولة المصرية بقبضتها وبسطت سلطانها على بلاد النوبة ، ثم قامت بتعيين حاكم خاص على تلك البلاد ، اطلق عليه لقب نائب الملك أو (ابن الملك ، حاكم بلاد كوش) ، وكانت مهمة نائب الملك هذا أدارية واقتصادية وحربية ومدنية ، وكان من واجباته أيضاً رعاية الشئون الخاصة بالاله آمون . وكان يعاون نائب الملك عدد من كبار الموظفين أهمهم :

أ. قائد الجيش

ب. وكيلان احدهما يشرف على شئون واوات والآخر على كوش .

ج. عدد من صغار الموظفين . وكان من بين هؤلاء الموظفين عدد من النوبيين الذين تقلدوا مناصب كبيرة .

ولتسهيل مهمة النائب قسمت بلاد النوبة الى خمسة أقسام ادارية ، وعين لكل قسم أمير نوبى ، حيث كانوا يشغلون مناصبهم عن طريق الوراثة وكانوا يرسلون أبناءهم الى مصر للتدريب استعداداً لملء مناصب آبائهم مستقبلا .

وأقيمت حصون جديدة فى المناطق التى أضيفت مؤخراً للمملكة المصرية كانت مهمتها الدفاع عن الممتلكات المصرية وصد هجمات القبائل التى كانت تشن من وقت لآخر ، ثم دحر الجماعات التى تغير على المنطقة من الصحارى المجاورة .

الاحوال الاقتصادية النوبية وعلاقاتها بمصر :

لعبت الناحية الاقتصادية دوراً هاماً فى علاقات الممالك المصرية ببلاد النوبة ، فالفراعنة كانوا يدركون أهمية منتجات بلاد النوبة . ولا سيما الذهب ، كذلك كانوا يفكرون فى أهمية الطرق والقوافل التجارية التى تمر ببلاد النوبة وهى فى طريقها بين الشمال والجنوب وبالعكس ، محملة بالسلع المختلفة ، وكانت بلاد النوبة تدفع الجزية سنويا للخزينة المصرية فى صورة ذهب أو مصنوعات من هذا المعدن النفيس ومن خشب

السنط ومن الاحجار المختلفة الألوان ، و كان يصنع منها الاصباغ فى مصر ، ثم ريش النعام وبيضه ، وجلود الفهود وكان الريش يستعمل فى صنع المراوح ويستعمل حلية فى لباس الرأس أو للزينة . وأما جلود الفهود فكانت تستخدم نوعا من اللبس لدى الكهنة ، كما كانت بلاد النوبة أيضا تصدر الى مصر بعض الماشية (الأبقار والثيران وكذلك الضأن والماعز) والجدير بالذكر أن معظم هذه الحيوانات كانت تأتى من بلاد كوش أو عن طريقها . ومجمل القول نجد أن منتجات بلاد النوبة وجنوبها كانت تمثل عنصراً هاماً فى الاقتصاد المصرى كما كانت تلعب دوراً كبيراً فى التبادل التجارى بين مصر وبلاد البحر الابيض المتوسط الأخرى .

الاضطرابات فى مصر وهجرة كهنة آمون :

فى أواخر أيام الاسرة العشرين عمت مصر اضطرابات كثيرة يرجع سببها الى ضعف ملوكها ، وقد ذكر المؤرخون أنه قد حل الانقسام بالبلاد ثم انتابت مصر خلافات حول العرش أدت الى تدهور الاحوال الادارية والاقتصادية والاجتماعية . ويقول الدكتور شوقى الجمل :

« ان كهنة آمون كانوا يحكمون البلاد بطريقة الشعوذة دون اعتبار للعدل والقانون»

كل هذا أدى فى النهاية الى أن تسود مظاهر التدهور فى البلاد فى ذلك الحين حيث تعددت سرقات المقابر الملكية التى كانت تحوى أشياء قيمة من الذهب والأحجار الكريمة . . وقد تعددت هذه السرقات حتى لم تترك مقبرة دون العبث بمحتوياتها ، الأمر الذى أدى بالكاهن الأكبر لآمون أن يتخذ أجراء بنقل مومياءات الملوك وتكديسها فى مخبأ كبير فى الدير البحرى . . غير أن هذا الأجراء كانت له ردود فعل تمثلت فى استياء كهنة آمون الذين كانوا يقومون فى مناسبات عديدة بطقوس دينية ظلت تدر عليهم أموالا ضخمة .

ولكن بالرغم من الحماية التى فرضها كهنة آمون على تلك المومياءات ورغم المحاكمات والعقوبات التى كانت تجرى ضد المجرمين الا أننا نجد أن السرقات ظلت مستمرة ، حيث أتسع نطاقها نسبة لسوء الحالة الاقتصادية التى نزلت بالبلاد والتى أدت

الى تفشى الفقر بين العمال الذين يعملون فى حفر المقابر ، ولما لم يجدوا مخرجاً نهبو القبور وأخلوها من كل محتوياتها ، وعوقبوا بالجلد وهددوا بالنفى الى كوش) . ولكن بالرغم من التهديد والعقوبات نجد أن أحد المتهمين قد أعترف بأن نصف سكان طيبة كانوا يمارسون عملية نهب القبور ، الأمر الذى أدى بأعداد كبيرة منهم الى الهجرة شمالا وجنوبا . وبالرغم من أن الليبيين قد وقفوا معوقين لهجرتهم نحو الشمال الا أن أعداداً كبيرة منهم قد استوطنت فى منطقة الدلتا .

أما عن كهنة آمون ، فأنهم لما تيقنوا من انتشار عبادة هذا الاله فى بلاد النوبة منذ الاسرة الثامنة عشر وظل الاله يتمتع بنفوذ كبير هناك ، فكر بعضهم جدياً فى الانتقال الى أرض النوبة حيث ظل سكانها يستقبلونهم بترحاب حار . . الأمر الذى جعلهم يقيمون فيها مراكزهم الدينية . من هذه الاماكن كلابشة وجرف حسين ووادى السبوع والدر وأبو سمبل ووادى حلفا (بوهين) وسمنة وجبل البركل .

ويقول بعض المؤرخين أن الكهنة الذين هاجروا الى بلاد النوبة لم يجدوا فيها ما اعتادوا عليه من رفاهية فى طيبة ، مما اضطرهم للبحث عن مكان آخر أكثر ملاءمة . وأخيراً استقر بهم المقام فى نبتا قرب الشلال الرابع .

وفى ذلك الحين كانت الأمور فى مصر تسير فى تدهور يزداد يوما بعد يوم ، وفى النهاية فشل العرش الفرعونى فى اعادة الامن والنظام الى البلاد ، الأمر الذى جعل شوكة الليبيين أكثر قوة وتماسكا حتى استطاع احدهم ويدعى شيشنق الأول أن يقوى من قبضته ويبسط نفوذ أسرته على الدلتا وبالتالى أصبحت الاسرة الثانية والعشرين ليبية الاصل ومؤسسها هو شيشنق . وقد حكم هؤلاء الليبيون مصر حوالى قرنين من الزمان .

اما الكهنة الذين استقروا فى طيبة ، فكان نفوذهم محصورا فى مصر العليا أو الوجه القبلى ، ولم ينجحوا فى بسط نفوذهم على الوجه البحرى .

وفيما بعد لابد لنا من وقفة طويلة على أعتاب نبتة بعد أن قويت شوكتها فى بلاد النوبة العليا وتكامل بناؤها المستقل هناك فزاد نفوذها حتى اصبحت تهدد مصر نفسها . . وبالتالى ظهر عدد من ملوك كوش ممن أصبح لهم شأن عظيم فى وادى النيل ، منهم كشتا وبعنخى وترهاقا .

قيام مملكة نبتة وامتداد نفوذها نحو مصر
واشهر ملوكها

كان النوبيون يعتبرون نبتة بمثابة « طيبة النوبية » ، اذ اقيم فيها معبد الاله آمون ، وكان يقوم بخدمته كهنة آمون الاصليون ، يعنى هذا أنها كانت تقوم مقام (طيبة) فى مصر من حيث النشاط الدينى والثقافى .

وبينما كان زعماء مصر يتنازعون على الحكم ومن أجل السيادة على العرش ، كان الامراء النوبيون يدعمون قواتهم ويعززون مراكزهم حتى بلغوا من القدرة والتصدى المرحلة التى مكنتهم من غزو مصر نفسها .

قامت نبتة وشمخت عند أسفل الشلال الرابع وعلى مقربة من كريمة الحالية ، حيث أمتازت بأهمية موقعها الذى كان يشرف على طرق القوافل التجارية والمسافرة من جنوب البلاد قاصدة شمالها . وكانت تشرف – أيضا – على الطرق المؤدية لمناطق التعدين الواقعة فى الصحراء النوبية كما نجد أن موقعها فى أسفل الشلال الرابع ساعد على أن تكون نقطة بداية للمواصلات النهرية حتى الشلال الثالث عند كرمة دون أن تقف فى طريقها أى جنادل أو عوائق ، كما أنها تقع فى منطقة تحيط بها أرض زراعية خصبة تنتج فيها من الخيرات ما تنتج .

لكل ما تقدم ظلت نبتة تستقبل وتضيف الى رصيدها اعداداً كبيرة من السكان الوافدين ، خاصة وقد ذكرنا فيما سبق أن أهمية نبتة اخذت تزداد بقدوم عدد من كهنة آمون اليها من مصر ، حتى أصبح لها نشاطها السياسى والثقافى ، ثم مكانة قيادية مطلقة لعبادة آمون الذى كان الاله الرسمى للدولة المصرية الحديثة . .

وقد اعتلى عرش نبتة عدد من الملوك ذكر اسماءهم البروفسور رايزنر على ضوء الحفريات التى قام بها فى المنطقة .

كان أول ملوك نبتة هو كشتا (٧٦٠–٧٥١ ق.م.) الذى أستطاع أن يدعم جيشه ليستقر بحكمه فى نبتة ، هذا مما جعله يزحف شمالا ويبسط نفوذه حتى طيبة (العاصمة الدينية المصرية) . كانت النهاية أن تمكن من قبضة البلاد ومهد لأ بنته امنردس لتتقلد منصب رئيسة كهنة آمون بعد وفاة ابنة ملك مصر التى كانت تتولى ذلك المنصب

من قبل .

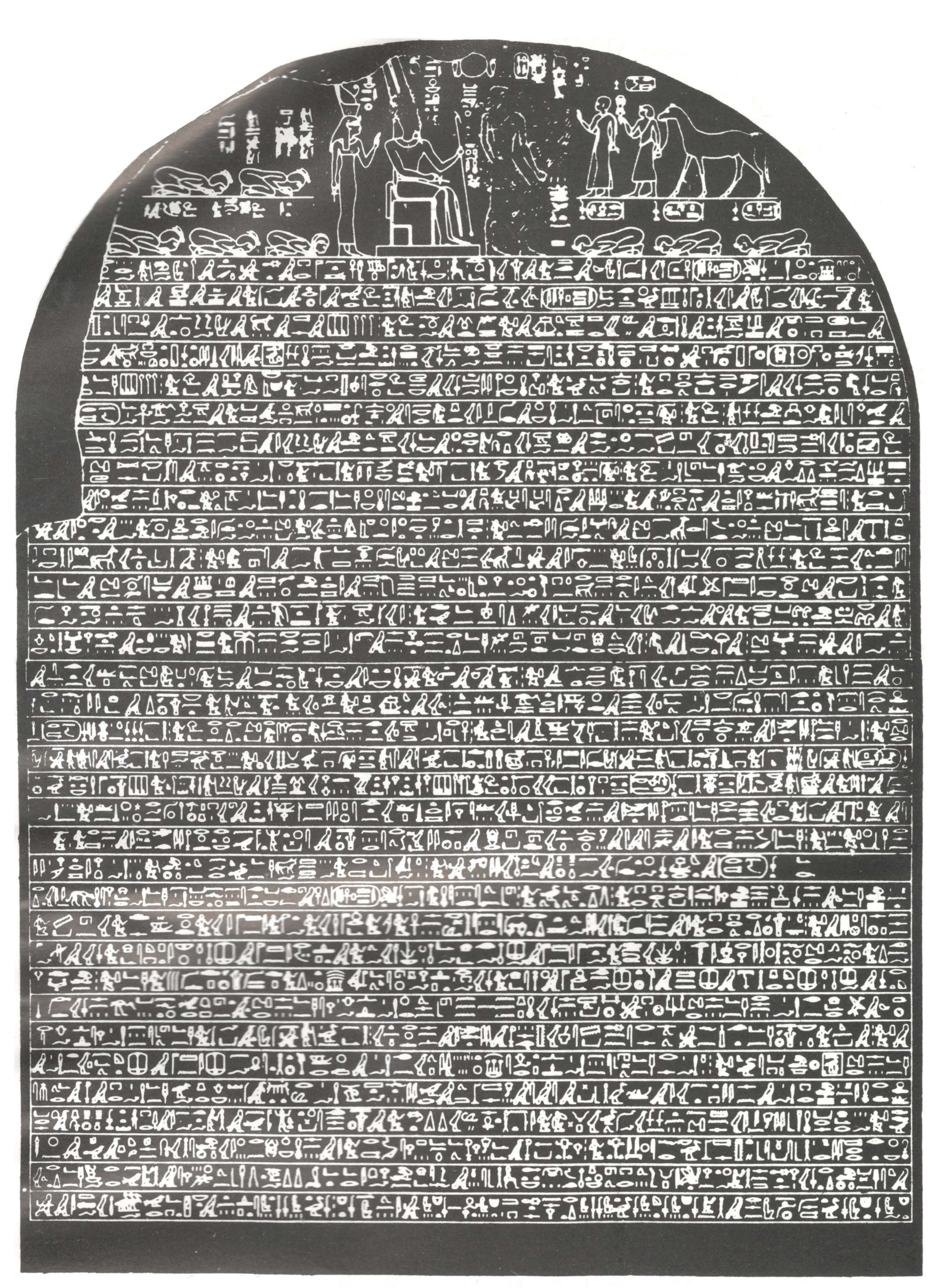
وبتولى كشتا عرش مصر ، كان هذا يعد بداية ميلاد الاسرة الخامسة والعشرين (النوبية الأصل) فى مصر وكان يجلس على عرش مصر من قبل كما ذكرنا آنفا أسرة ملكية ليبية منذ الاسرة الثانية والعشرين ، اسم اول ملوكها هو شيشنق الاول .

بعنخى :

وفى عام ٧٥٠ ق.م. أصبح بعنخى ابن كشتا ملكاً على بلاد النوبة خلفا لوالده وقد عُثر على لوحة ضخمة من الجرانيت فى جبل البركل (الجبل المقدس) ، دون فيها بعنخى بالخط الهيروغليفى تاريخ حياته وكافة انتصاراته على ملوك مصر واخضاعه لتلك البلاد حتى هيراكليوبوليس (جنوب الفيوم) . واليك بعض ما جاء فى اللوحة الأثرية التى ترى صورتها فى الصفحة المقابلة . . . .

(حينما تحرك بعنخى باسطوله قاصداً الشمال ، اضطرب الموج فزعاً ورهبة واهتزت الارض فوقف ليؤدى فى البركل المقدس الصلاة مباركا مسيرة الاسطول ومبتهلا للرب بالعودة منتصراً . . بعدها تقدم بعنخى بقواته فى اسطوله النهرى العظيم لملاقاة تافنخت الذى احتل الدلتا فى الشمال ، ثم زحف جنوبا فأضحى يهدد بلاد النوبة نفسها ، هذا مما جعل بعنخى يرسل الى قواده وجيوشه فى مصر ليقفوا صامدين أمام زحف (تافنخت) وليصدوه ويمنعوه من التوغل جنوباً . وفى الوقت نفسه أعد جيشاً للزحف على مصر التى وصلها بالمراكب ، وحاصر الجيوش المصرية وانتصر عليها ، فسقطت بذلك مدن الوجه القبلى والبحرى واحدة تلو الاخرى وفى بعض أقاليم الوجه البحرى ، سلم له أمراؤها واحداً فواحداً دون التورط فى معارك جديدة مع النوبيين .

وهكذا اصبحت مصر كلها تحت قبضة الملك بعنخى . وبعد أن تم له اخضاعها غادرها الى الجنوب بالسفن المحملة بكميات كبيرة من الذهب والنحاس والأحجار الكريمة ، وهى عبارة عن مجموع الهدايا التى قدمت له ، وهى أيضا تمثل الجزية التى فرضها على المدن التى احتلها . . . وهو فى طريقه إلى نبتا ، استقبلته الجموع الحاشدة فى كل مكان بالترحيب والفرح . وبهذا أصبح بعنخى يحكم امبراطورية تمتد من البحر الابيض المتوسط شمالا الى نبتة جنوبا .)



لوحة فتوحات بعنخي

ولم تستقر الأحوال فى مصر طويلا بل حلت بها الأضطرابات مرة أخرى بعد ظهور قوة جديدة أخذت تهددها فى الشمال الشرقى هى دولة آشور فى بلاد النهرين والتى أخذت تبسط نفوذها على بلاد الشام وتطمع فى مصر نفسها وظلت تسخر من أجلها كل امكانياتها العسكرية وتعمل لضمها الى امبراطوريتها .

الملك شباكا :

تولى الملك شباكا العرش بعد بعنخى ولقب بملك مصر والنوبة حيث أقام فى نبتا العاصمة . من هنا يمكننا أن نذكر أنه قد سار بجيوشه نحو مصر لاخضاع الاقاليم الشمالية التى سقطت مرة أخرى فى يد تافنخت (الذى هزمه بعنخى من قبل) وقد استقر المقام بشباكا فى طيبة زمناً مما جعله يهتم بالعمران ، فقام بتشييد واصلاح بعض المبانى وكثير منها فى طيبة (عاصمة الوجه القبلى) وممفيس (عاصمة الوجه البحرى) كما نجده قد اهتم بالزراعة أيضا .

وفى هذا العهد ظل الاشوريون يطلقون نفوذهم ويبسطون سلطانهم على حساب بلاد الشرق الاوسط وهم لايزالون يطمعون فى مصر ، ولكن شباكا فاجأهم بكسر شوكة أطماعهم عندما أتصل بملك آشور وتبادل معه الهدايا ليوثق ويقوى من العلاقات بين القطرين . ولكن رغماً عن ذلك نجد أن الملك الاشورى (سرقون) قد أرسل قوة للزحف على مصر بغرض احتلالها وضمها الى امبراطورية آشور . . فاشتبكت هذه القوة مع قوات شباكا وانتصرت عليها ، وشجع هذا الانتصار الأشورى تافنخت للخروج من العزلة المضروبة حوله فعقد صلحاً منفرداً مع الملك الأشورى (سرقون) واضعاً فى الاعتبار تجميع قوة يمكنها أن تهدد مستقبل شباكا . . ولكن لم يمض زمان وجيز حتى توفى تافنخت ، وتولى الامارة من بعده ابنه الذى قبض عليه الملك شباكا وزج به فى السجن وفى النهاية تم اعدامه .

الملك شبتاكا :

هو ابن أخ شباكا ، وقد أشترك مع عمه فى الحكم لفترة اكتسب فيها خبرة مكنته من ادارة البلاد ، فسيطر على زمام أمورها وقطع بذلك شوطاً بعيداً فى مجال

البناء والتعمير على امتدادها .

ان شبتاكا وهو يقوم بعملية البناء الداخلى لم يغض النظر عن الخطر الأشورى الذى بدأ يقترب خاصة بعد أن أخذت تلك الدولة فى التوسع نحو سوريا وفلسطين وبعض أقاليم البحر الأبيض المتوسط ، مما ساعد على قيام حلف يضم تلك الدويلات مع توسيع نطاقه ، للوقوف أمام التوسع الأشورى وقفل الطريق أمامه . ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر كان لا يسعها الا الانضمام إلى هذا الحلف الذى ظلت تحت لوائه طويلا .

من هنا بدأت الامور تسير سيرا غير طبيعى ، رغم وجود الحلف . ففى مطلع عام ٧٠٠ق . م . تحرك الملك الاشورى (سنحريب) بجيشه لملاقاة اعدائه – اعضاء – الحلف – زاحفا بقواته نحو مدن فلسطين حيث قهر أمامه استحكامات اعدائه فنازلهم حتى أنزل بهم هزيمة استطاع بعدها ان يفرض حصاره على بيت المقدس . . ثم واصلت جيوشه زحفها نحو مصر وتمكنت من محاصرة بعض مدنها ، بينما تمكنت البقية الباقيه من الصمود . . . ولكن رغم الحصار القاسى الذى فرض على مصر وأسكت فيها صوت النضال والمجابهة ، الا أن القدر تدخل فجأة ذات ليلة ، فالقى بقبضته على جيوش أشور التى بدأت قبضتها تتراخى حتى تنفست تلك المدن الضعداء . فقد حلت فى تلك الليلة كارثة بجيوش أشور أرغمت الملك سنحريب على الانسحاب لبلاده يجر اذيال الخيبة والهزيمة .

وهناك عدة روايات تحكى تفاصيل هذا الحادث ، منها أن وباء نزل بهذا الجيش الأشورى ، فانتشر بين الجنود الذين تساقطوا تباعاً ، مما تعذر على البقية الباقية مواصلة النضال . . وهناك رواية أخرى تقول أنه حدث ذات ليلة أن ملايين من فئران المزارع قد هاجمت الجند ، فقرضت السهام وخيوط الاقواس وجلود الدروع . . ولما استيقظ الجند فى الصباح وجدوا انفسهم بلا سلاح ، مما اضطرهم الى الهرب متوجهين شمالا بعد أن كانت وجهتهم جنوبا .

الملك تهارقة أو ترهاقة :

هو ابن بعنخى ، ويعد من أقوى ملوك النوبة الذين حكموا مصر ، سافر تهارقة

الى مصر عندما بلغ من العمر عشرين عاماً ، فبقى فيها سنوات أعلن بعدها نفسه ملكا على الشمال والجنوب ، وتعتبر مدة توليه الحكم فى مصر عهداً يتسم بالحركة فى الداخل والخارج .

وقام تهارقة بأعمال عمرانية كبيرة فى مصر وفى كوش ، حيث أقام معبدا فخما بالقرب من نبتا ، وساعد على بنائه وتزيينه عدد من أصحاب الحرف والصناعات فى مصر ثم أرسل عدداً من الفنانين المصريين من مصر لاقامة المعبد على نسق المعابد المصرية ، كما لم يفت عليه أن يرسل عدداً من خبراء الزراعة المصرية لاقامة الحدائق وادخال بعض المنتجات الزراعية ولا سيما زراعة الكروم الذى كان يصنع منه النبيذ الذى أشتهر بجودته .

ولقد كتب تهارقة العديد من اللوحات الأثرية وقدم الكثير من الهدايا للمعابد مما يدل على ثراء البلاد آنذاك ، منها الأوانى الذهبية والانسجة المزركشة ذات المستوى الصناعى المتقدم ، ثم بقى تهارقة لاكثر من عشرة اعوام بمصر ، نظم خلالها الادارة ونشر الامن وعمل على تطوير التجارة فى ربوع امبراطوريته التى كانت تمتد من البحر الابيض المتوسط شمالا حتى الشلال الرابع جنوبا ، غير أن الخطر الاشورى ما زال ماثلا فى شمال شرق وادى النيل وشرقى البحر الابيض المتوسط . وكان ملك آشور (سنحريب) يعد العدة لغزو مصر الا أنه قتل قبل ان ينفذ خطته واعتلى العرش من بعده ابنه (اسرحدون) . وفى عام ٦٧٥ق.م. خرج اسرحدون على رأس جيش اشورى ليحقق ذلك الحلم الذى أرق والده فى حياته طويلا .

وهناك على امتداد مساره التقى بجيوش تهارقة ، ودارت بينهما معركة ضارية الحق فيها اسرحدون الهزيمة بجيوش تهارقة ثم حاصر ممفيس واستولى عليها مما اضطر تهارقة للانسحاب بجيوشه متقهقرا نحو الجنوب . . وبالتالى عاد ملك آشور الى عاصمته (نينوى) حيث اطلق على نفسه (ملك الوجه البحرى والقبلى وبلاد كوش) .

بعد أن انزلت قوات أشور الهزيمة بتهارقة خرج الملك النوبى تاركاً أرض مصر متجها نحو الجنوب ، ومن ثم ضعفت مقومات الدولة المصرية من جديد ، اذ أصاب حكام الاقاليم الغرور ، الأمر الذى أدى الى قيام المنازعات بين هؤلاء الحكام . .

فكل منهم كان يتطلع الى أن يعتلى عرش مصر . وشجعت هذه المنازعات تهارقة للعودة ثانية بجيوشه لتحرير الاقاليم الشمالية من جديد . وما أن وصلت هذه الأنباء دولة أشور حتى أسرع أسرحدون بأعداد حملة جديدة للزحف على مصر عام ٦٨٨ق .م .

ولكنه مات قبل ان يصل غايته ، فتولى الحكم من بعده ابنه (اشور بانيبال) الذى أعد حملة لغزو مصر ، وصلت أرض النيل عام ٦٦٧ق . م. واحتل فيها الاشوريون ممفيس وواصلوا زحفهم جنوبا نحو طيبة واستقروا فيها حتى هدأت الاحوال فغادرها أشور بانيبال وجيشه كما غادروا أرض مصر من قبل قاصدين بلاد أشور من جهة الشمال الشرقى .

سار أشور بانيبال بجيشه نحو الجنوب هادئا ومطمئنا ، ولكنه لم يكن يدرى بأن هذا الهدوء كان غائبا فى شمال البلاد . . فقد ساء الحال بقيام الثورات التى بدأ يضرم وقودها امراء الاقاليم الشمالية من المصريين ضد الحكم الأشورى ، مما جعلهم يبعثون برسائلهم للملك تهارقة ويدعونه للاشتراك معهم فى هجومهم المرتقب ضد عدوهم المشترك ملك أشور . كان هذا بعد أن وعدوه بالتعاون معه والأعتراف له بسلطانه المطلق ، ولكن قبل أن يبت تهارقة فى أمره تكشفت له خيوط هذه المؤامرة وافتضح أمر أمراء الاقاليم الشمالية من المصريين مما جعل الاشوريين يتأهبون للقضاء عليهم ، وعلى التمرد المتمركز فى شمال البلاد . . وبالفعل استطاع الاشوريون القضاء على المتآمرين ، والقاء القبض على الأمراء الثائرين وقادوهم الى نينوى عاصمة (أشور) .

أما عن تهارقة فيقول الدكتور شوقى الجمل . . . .

« لم يصلنا أى شىء بعد ذلك عنه ، ولكن رغم هزيمته على يد الاشوريين يجب أن نذكر مقاومته لهم مما يدل على أنه كان محارباً ماهراً ، أيضا يذكر له نشاطه فى تشييد المبانى ، ومنها ما بناه فى معبد الكرنك وسجل عليه مناظر تتويجه فى طيبة ، ثم منها ما اصلحه وشيده فى معابد بلاد النوبة ذاتها .

الملك تانوت آمون :

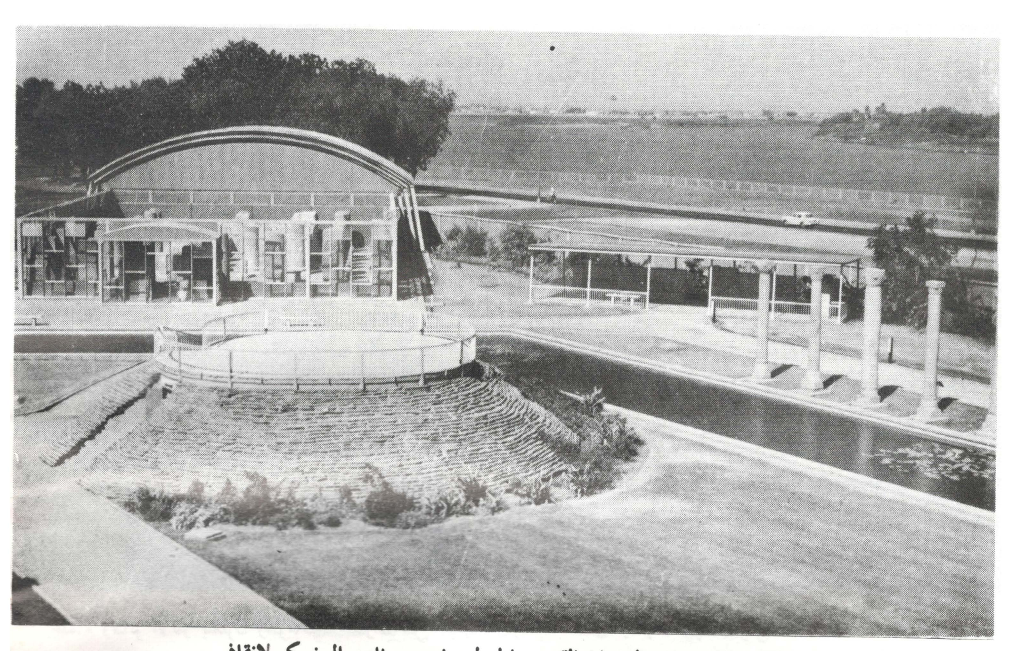
وتولى العرش بعد تهارقة تانوت آمون بن شباكا ، فتقاسم مع تهارقة مسئولية

ادارة شئون البلاد ثم غادر تهارقة مصر الى نبتة وظل تانوت آمون فى طيبة الى أن سمع أنباء موت تهارقة ، فأعلن نفسه ملكاً على مصر وبلاد النوبة . ومن ثم تأهب للذهاب الى نبتة ليتوج فيها رسمياً . . وبعد أن تم له ذلك غادرها الى الشمال عاقداً العزم على الاستيلاء على النصف الشمالى من مصر ، والذى سقط فى أيدى الأشوريين مرة أخرى .

ومنذ أن بدأت أطماع أمراء الشمال تتزايد للاستيلاء على الاقاليم الشمالية ، ظل الموقف متأزماً والتحديات تتزايد يوماً بعد يوم حتى وصل الامر الى مرحلة اصطدمت فيها القوى المتناقضة فكان صداماً لابد منه لكى يرد أشور بانيبال جزءاً من كرامته وجيوشه التى هزمت من قبل ، وحتى يحقق طموحه بضم اقاليم الشمال ، كل ذلك جعله يقوم بحملة ثانية على مصر لمواجهة جيوش تانوت آمون والتى أعد لها جيشا قويا يهزم ولا يهزم .

أما تانوت آمون على الواجهة الأخرى من البلاد ، نجده قد بدأ يتراجع ويؤكد بأنه لم يقو على مقاومة الزحف الأشورى ، مما أضطره للانسحاب نحو طيبة ، ولكن لم تكن طيبة تشكل حجر عثرة أمام الزحف الأشورى ، فقد بدأت جيوش أشور فى مطاردة تانوت آمون حتى طيبة التى وصلتها بسهولة ، فضربت حصاراً حولها ، واحتلتها واوسعتها تخريبا وسلبا . . وبذلك تم لاشور بانيبال الاستيلاء على مصر كلها من شمالها لجنوبها . وفى النهاية لم يبق لملك آشور الا أن يعود منتصراً الى عاصمته نينوى .

بهذا يعتبر المؤرخون أن الانتصار الأخير لآشور بانيبال وانسحاب تانوت آمون الى نبتا عام ٦٦٢ق.م. ، كان نهاية الاسرة الخامسة والعشرين فى مصر ، وبالتالى نهاية للحكم النوبى فى شمال الوادى .



بعض آثار النوبة بعد نقلها الى متحف السودان القومى بالخرطوم ضمن برنامج اليونسكو لإنقاذ آثارات النوبة ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



علماء وفنانو الآثار ينقلون رسومات الجدران قبل غرقها .. وهذه احدى جدران كنيسة فرس ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم »



رسومات على كنيسة فرس التي كانت عاصمة لإحدى المماليك النوبية المسيحية ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



تمثال الملك تهارقة ..

BUHEN TEMPLE

THIS TEMPLE WAS ORIGINALLY BUILT BY THE EGYPTIAN QUEEN HATSHEPSUT WHO REIGNED ABOUT THE YEAR 1500 B.C. PARTS OF IT WERE RE-BUILT BY TUTHMOSIS III WHO CUT OUT THE QUEEN'S NAME AND REPLACED IT BY HIS OWN IN MANY PLACES. THE MAJORITY OF THE SCENES ON THE WALLS SHOW THE KING MAKING OFFERINGS TO THE GODS

TO THE NORTH IS ANOTHER TEMPLE, NOW MUCH DESTROYED BUILT BY THE PHARAOH AHMOSIS ABOUT 1570 B.C. AND REBUILT BY AMENOPHIS II.

THESE BUILDINGS ARE PROTECTED BY THE ANTIQUITIES ORDINANCE 1952 AND IT IS AN OFFENCE TO DAMAGE THEM IN ANY WAY OR TO WRITE NAMES ON THEM.

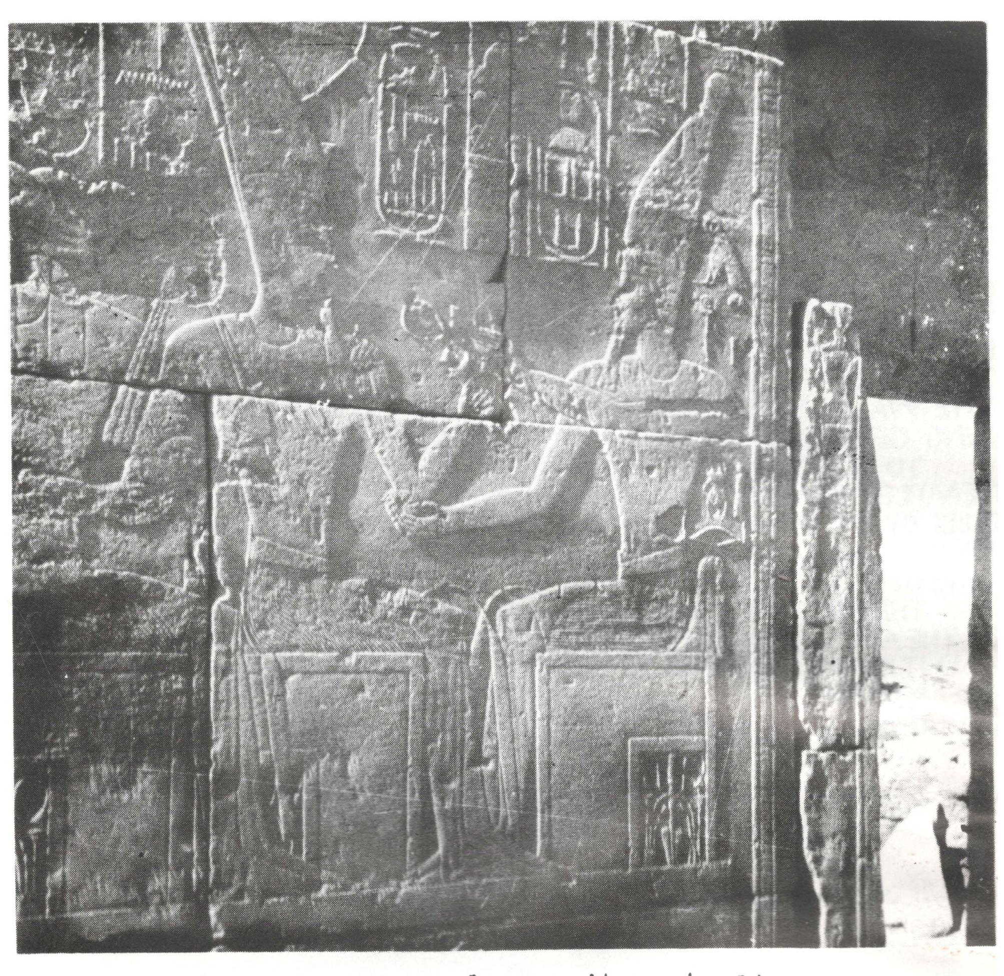
معبد بوهين

لقد شيدت هذا المعبد في الأصل الملكة المصرية حتشبسوت التي حكمت حوالي ١٥٠٠ ق.م ثم اعاد بناء بعض اجزائه تحتمس الثالث الذي حذف اسم الملكة واستبدله باسمه في كثير من المواضع واغلب هذه المناظر على الجدران تبين منظر الملك وهو يقدم القرابين الى الآلهة.

والى شمال هذا المعبد يقع معبد آخر بناه الفرعون احمس حوالي ١٥٧٠ ق.م ثم اعاد بناءه امنحوتب الثاني وهو الآن قد تهدم كثيراً.

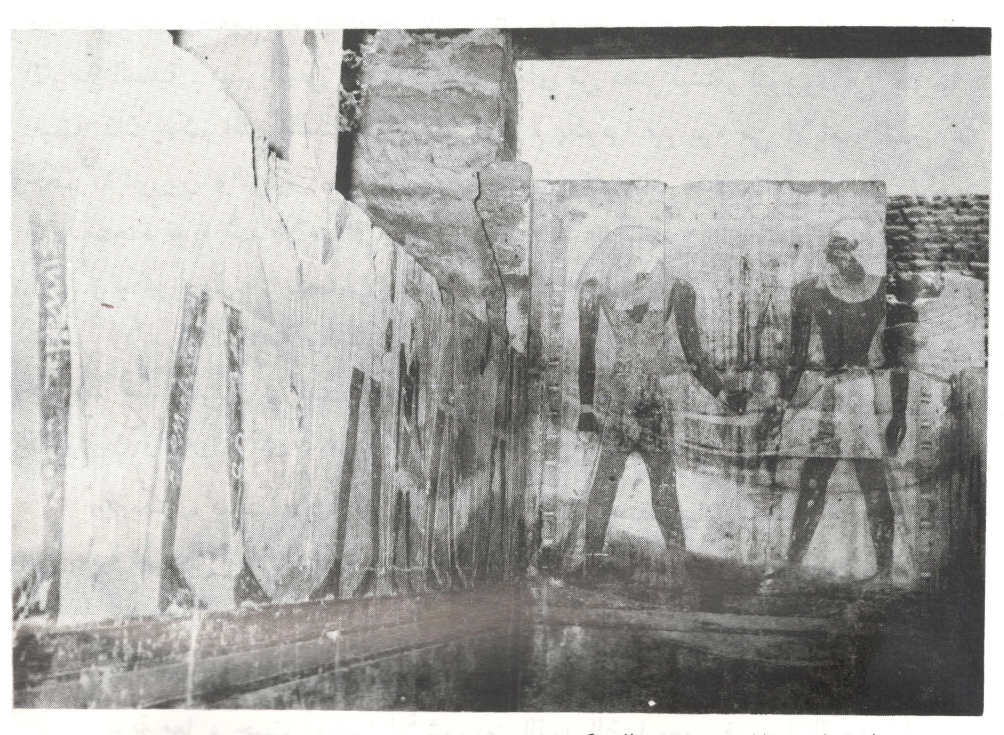
ويحمي هذه الأبنية قانون الآثار لسنة ١٩٥٢ ولذا فاي تخريب او كتابة الأسماء عليها يعد جريمة

معبد بوهين : نقل هذا المعبد الى الخرطوم وأعيد تشييده في حديقة متحف السودان القومي ..



رسومات على جدران معبد سمنة ..

« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



رسومات على جدران معبد بوهين الذى كان يقع غرب حلفا دغيم ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..

مصر بعد نهاية الاسرة الخامسة والعشرين بعد
الحكم النوبى وملوك النوبة الأخرين

بالرغم من أن فترة الحكم النوبى لمصر كانت قصيرة الا أنها كانت مليئة بالاحداث زيادة على ذلك فقد تسبب الأشوريون فى كثير من الازمات التى اجتاحت البلاد ، بما فيها القلق الذى سيطر على الجميع ، بسبب أطماع الأشوريين التى لم تقف عند حد . فنجدهم عند زحفهم قد أستطاعوا أن يثبتوا أقدامهم وأن يغرسوا رماحهم فى قلب الارض الصلبة . فهم بالفعل احتلوا الجزء الشمالى من مصر ليستقر النوبيون فى جنوبها ، حيث كان يحكم اقليم الدلتا امراء مصريون لم يكونوا فى يوم من الايام راضين عن حكم الاشوريين والنوبيين على السواء ، خاصة وقد كان هدفهم الأسمى هو تكوين جبهة متحدة قوية ضد الاحتلال الاجنبى ، وكان على رأس تلك الحركة أمير مصرى يدعى (نيكاو) وابنه (بسمتيك) الذى عمل على تحقيق هذه الأمنية ، ويعتبر بسمتيك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين ، وهو الذى أنتهز فرصة انهماك الاشوريين فى حروبهم ضد البابليين ، فثبت أقدامه فى مصر ونجح فى تحرير الامارات المصرية من الاشوريين وأخيراً نودى به ملكا على مصر .

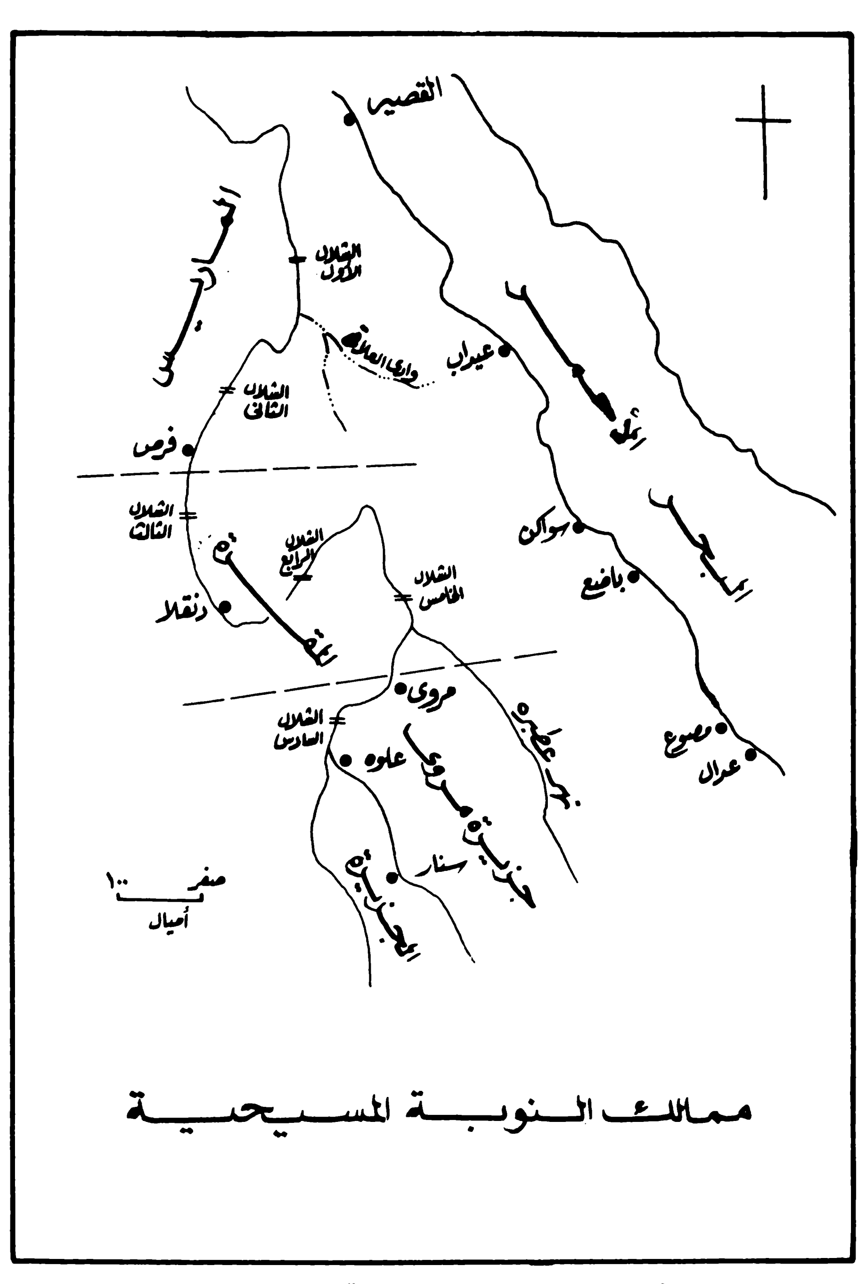
ولم يكتف بسمتيك بتحرير الوجه البحرى بل استطاع ان يزحف جنوبا ويسيطر على طيبة مما جعل مصر تمتد من البحر الابيض المتوسط وحتى مداخل الشلال الاول ، خاضعة تحت أشراف الملك المصرى (بسمتيك) .

وبذا يمكن القول أننا قد تعرفنا على أسماء أهم ملوك النوبة الذين تولوا عرش مصر والنوبة معا ، حيث تصدوا للأشوريين الذين التقوا معهم فى سلسلة من الحروب التى كانت نهايتها تلك الانتصارات التى حققها بسمتيك .

وقد ورد ذكر عدد آخر من ملوك النوبة بعد نهاية الاسرة الخامسة والعشرين ، حسب قائمة البروفسور ريزنر منهم (اسبالتا) ثم (أمن — تنى — يركى) الذى أخمد نيران الفتن والضغائن فهزم بذلك اله الشر المسيطر على سماء البلاد ، كما نجده قد قام أيضا بدور كبير فى صد هجمات القبائل البدوية التى كانت تغير على السكان المستقرين على النيل. وعلى صعيد البناء والتعمير نجد أنه قام باصلاحات كثيرة فى المعابد والمبانى الهامة.

واخيرا نقف مع الملك (نستاسن) الذى يعتبر آخر ملوك نبتة حسب تقرير ريزنر ، وقد عاصر الغزو الفارسى لمصر تحت قيادة قمبيز ، وفى ايامه انتقلت العاصمة من نبتة الى مروى التى توج فيها بالفعل ، ثم رجع الى نبتة لينال قبول الاله آمون ومباركته

وبهذا القدر نكتفى بحديثنا عن نبتة وملوكها منتقلين الى مروى لنرفع النقاب ونستأذن التاريخ رجعة به الى الوراء لنقف على مشارف الزمان عندمروى ، لنعايش نشأتها وحضارتها حتى تكتمل الصورة عن النوبة العليا أو دولة كوش .


القصير
الشلال الأول
وادي العلاقي
عيذاب
الشلال الثاني
فرص
الشلال الثالث
الشلال الرابع
الشلال الخامس
دنقلا
سواكن
باضع
مروى
الشلال السادس
علوه
جزيرة مروى
بحر عطبرة
سنار
مصوع
صفر ١٠٠
أميال
ممالك النوبة المسيحية

خريطة رقم "٥"

على اعتاب نبتة

قيام دولة مروى

كما علمنا سابقا ، كانت نبتة عاصمة لكوش ، حيث كانت تحتل المركز الادارى والدينى والثقافى والتجارى بالاضافة الى كونها مقراً للعائلة الكوشية ، وكان يغلب على مبانيها واهراماتها ومعابدها الطابع المصرى ، اذ أن بعض الملوك قد جلبوا اليها بعض الفنانين والعمال المهرة من مصر للاستعانة بهم فى مجال التخطيط والنقش والبناء والصناعة فى تلك البلاد ، غير أن نبتة بدأت تفقد أهميتها بالتدريج ، اذ بدأت أنظار الملوك تتجه صوب الجنوب ، ويعزى ذلك الى طبيعة البيئة الجغرافية فى مملكة نبتة ، حيث تقع فى منطقة جافة نسبياً ، اذا ما قارناها بالمنطقة التى تقع الى الجنوب منها ، لأن الأخيرة تتمتع بأمطارها الصيفية ، وبأراضيها الزراعية الواسعة ومراعيها الغنية ، كما كانت تتمتع بوفرة الحديد الخام ، ذلك المعدن الذى لعب دوراً هاماً فى حياة المملكة واقتصادياتها . وفى النهاية نجد أن هذه المنطقة الجنوبية هى مروى التى حلت محل نبتة فى الشمال .

تقع مروى على الضفة الشرقية للنيل ، على مقربة من محطة كبوشية الحالية ، شمال شندى ، فى المنطقة التى يسميها المؤرخون القدماء (جزيرة مروى) والتى كان يقصد بها أرض البطانة ، كما يطلق عليها (أى مروى) الآن اسم (البجراوية) . . . ومدينة مروى بلغت من الشهرة والأهمية شأوا نافست فيه نبتة كمركز تجارى وثقافى وسياسى هام ، وانتزعت منها فى النهاية مركز الصدارة فى بلاد النوبة كما جاء ذكره .

ويعتبر العهد المروى من أعظم الحقب التاريخية فى السودان حيث تأثر بالحضارات المصرية والرومانية ثم أخيرا الحضارة الافريقية . كما عاصرت دولة مروى حكم البطالسة والفرس والرومان فى مصر وكان لها اتصال بها جميعا . ولكن بالرغم من اتصالها بهذه الحضارات ، فقد احتفظت باستقلالها السياسى والاقتصادى ولو أنها تأثرت بها ثقافيا وتبادلت معها تجارياً .

كانت المنطقة تدخل ضمن مملكة كوش بعاصمتها نبتة الى أن حلت محلها مدينة مروى كما تقدم ، حيث نجد أن موقع مروى هو الذى جعل منها مدينة ذات أهمية بين

مصر والبحر الابيض المتوسط شمالا وافريقيا فى الجنوب . فامتازت بالطريق النيلى والذى كان يعتبر من أهم الطرق التى كانت تربط كوش بمصر – ولو ان نبتة كانت فى موقع مناسب لقربها من شمال الوادى ، الا أن مروى كانت فى موقع أكثر ملاءمة للتجارة مع جميع الجهات . مع أواسط السودان وجنوبه ومع مملكة اكسوم (اثيوبيا) ومع كافة انحاء القارة الافريقية لأنها كانت تقع فى مفترق الطرق الى الشمال والجنوب والشرق .

وعليه امتدت حدود دولة مروى من الشلال الاول حتى حدود اثيوبيا ، وكما يذكر بعض المؤرخين نجد أن حدودها الجنوبية ربما كانت قرب موقع سنار الحالية . . وكان يحكم الدولة عدد من الملوك والملكات اللائى كان يلطق عليهن لقب (كنداكات) .

أما عن حياة المرويين ، فيقول البروفسور شينى أن صعوبة قراءة اللغة المروية حالت دون اعطاء صورة كاملة عن الحياة فيها غيرأن المعلومات التى جمعت من الآثار والرسومات توضح أن رجال الدين كانوا يلعبون دوراً كبيراً فى حياة الناس . . وعن الملامح المميزة لهؤلاء السكان ، كانت تغلب عليهم التقاطيع الافريقية ، ويبدو من بعض الرسومات أن عادة الشلوخ على الوجه كانت تمارس آنذاك ، وبقيت حتى اليوم عند بعض القبائل السودانية ، وكذلك استعمال الكحل فى العيون . وكان الناس يسكنون فى قطاطى قاعدتها مستديرة الشكل ومبنية من الطوب الاخضر ، وعليه سقف مخروطى الشكل من الاعشاب . أما الملوك والوجهاء من الطبقات العليا ، فكانوا يسكنون فى بيوت مبنية من الطوب الاخضر . . اما عن الاثاثات ، فانه قد وجد ما يشبه السرائر المسماة (بالعنقريب) .

الزراعة :

كانت من أهم الحرف التى مارسها السكان ، حيث كانوا يزرعون بعض الحبوب أهمها الذرة التى كانت تستعمل كغذاء ويصنع منها مشروب يعتقد أنها (المريسة) المعروفة فى الوقت الحاضر .

ومن الاشياء التى اكتشفها علماء الآثار خرق من الاقمشة القطنية فاعتقد البعض

أن القطن كان من المحصولات الزراعية التى كانت تنبت فى اقليم مروى . . ويقول شينى : « أن ذلك ربما كان من تأثير بعض الهنود على الحضارة المروية » . وقد ورد ذكر أشجار القطن فى اللوحة التى وجدت شمال اكسوم والتى اورد فيها ملك اكسوم (عيزانا) غزو جيشه لمملكة مروى وقطعهم اشجار القطن والقائها فى النهر .

الحديد والصناعة :

كان الحديد الخام متوفرا فى الصخور الرملية النوبية (Nubian Sand Stones) حيث كان يتم صهره فى افران توقد بالفحم النباتى ، الذى كان يستخرج من اشجار السنط التى كانت متوفرة آنذاك فى ارض البطانة وعلى شاطىء النيل ، وقد مكنتهم معرفتهم بالحديد واستخراجه من صنع العديد من الاسلحة والآلات الزراعية مثل آلات عزق الأرض وأخرى للحفر ولقطع الحشائش ، كما صنعوا الفؤوس ورؤوس الحراب ، وكانت هذه الصناعات قد وصلت مستوى رفيعاً حتى إذا ما قارناها بالوقت الحاضر .

ويذكر الدكتور أحمد عبد الرحمن العاقب فى أحد أبحاثه عن مروى : « إن هؤلاء النوبيين ، قد أسهموا بقسط عظيم فى مجال العلم والتكنلوجيا فى ذلك الوقت ، وهـذا يتبدى على سبيل المثال فى التخطيط الهندسى الرائع للمدن مع توفير الخدمات التى نعتبرها اليوم من الخدمات الحديثة كتوزيع المياه مثلا ، كما يتبدى أيضاً فى قيام بعض الصناعات مثل صهر الحديد والنحاس وتصنيعها ، ودبغ الجلود وصناعة الورق من نبات البردى ، وغيره مما يكشف عن التقدم التكنلوجى الهـائل بالنسبة لتلك العصور » . . « والسودان » فى رأى الدكتور العاقب « لم يرث إلا القليل من ذلك الماضى العظيم » .

مروى وعلاقاتها بالقوى الخارجية

١ — مروى والفرس :

عجز الفرس الذين كانوا يحتلون مصر عن غزو دولة مروى ، وكانت مصر قد وقعت تحت الاحتلال الفارسى منذ عام ٥٢٥ ق . م والذى قام به القائد الفارسى قمبيز حيث وجه اهتمامه نحو بلاد النوبة .. فأرسل لها بعضاً من جواسيسه فى شكل وفد لملك مروى ، الا ان الملك فطن لخطته فلم يأبه لموقفه أو يأبه لشئ أو يهتم بالوفد .

فما كان من قمبيز الا أن أرسل جيشاً فارسياً لمواجهة هذا التحدى ، ولكن كانت الظروف غير الملائمة تترصد مسيرة هذا الجيش الذى وقفت أمامه بعض العوائق الطبيعية فمنعته من التقدم ، خاصة وهو لم يعد العدة لمواجهة الصحارى القاحلة الممتدة فى طريقه والتى ارغمت القائد قمبيز للعودة الى مصر بما بقى له من جيشه الذى هده الجوع ومتاعب الطريق ، أذ لقى معظمهم مصرعهم على امتداد الصحراء النوبية .

٢ — مروى والبطالسة :

عندما نزل البطالسة بمصر استولوا منذ البداية على حزء من بلاد النوبة السفلى. حينما كان الملك المروى (ارقامنز) معاصراً لهذه الحقبة والذى قوى من علاقاته مع البطالسة فجعلها اكثر قوة على الصعيد التجارى ، خاصة والبطالسة كانوا يطمعون فى ذهب وادى العلاقى ، وكذلك فى استيراد الأفيال التى كانت تعيش آنذاك فى أرض البطانة ، وكانت ترسل سيراً الى ميناء خاص على البحر الاحمر قرب سواكن الحالية يسمى (بطليموس تيرون) .

٣ — مروى والرومان :

كانت مصر خاضعة للرومان منذ عام ٣١ ق . م . وفى ايام حكم الامبراطور (اغسطس) عين (كورنيلوس قالوس) حاكماً على مصر .. وكانت طيبة فى ذلك الوقت مركزا للقلاقل والثورات ، زيادة على وقفاتها الصلبة ضد الحكم الرومانى — حيث كان للنوبيين دورهم الكبير فى ذلك — فما كان من الحاكم الرومانى الا ان اخضع طيبة ثم اخمد ثورتها واتصل بالقادة النوبيين ، فطمأنهم بأنه سيحترم استقلالهم ماداموا يواصلون دفع الضرائب المقررة عليهم ، زيادة على احترامهم للحدود .

غير ان النوبيين لم يذعنوا لارادة الرومان . وفى عام ٢٩ ق . م . أرسل الرومان قواتهم لأخماد

احدى الثورات حينما كان على عرش مروى احدى الملكات (الكنداكات) والتى تحينت فرصة وجود الجيش الرومانى خارج مصر فى محاولة لاخضاع بلاد اليمن ، فأرسلت جيوشها لغزو طيبة التى دخلها النوبيون عام ٣٣ ق . م . وهاجموا الحاميات الرومانية فيها وانتزعوا تماثيل قيصر من قواعدها .

وعندما وصلت انباء الهجوم النوبى الى مسامع الرومان أصدر الامبراطور أمره لحاكم مصر بالخروج فى جيش كبير لملاقاة النوبيين ، وبالفعل التقى الجيشان ووقع بينهما صدام عنيف كتب بعده النصر للرومان فطالبوا النوبيين باعادة ما استلبوه وما غنموه ، ولكن النوبيين الذين لم تهزم كبرياؤهم ، رفضوا الاستسلام لتهديد الرومان وتمسكوا بموقفهم رغم نتيجة الحرب التى خسروها ، ثم ظلوا متمسكين به وبالأهداف التى من أجلها قامت الحرب .. خاصة وهم كانوا يدركون جيداً الاسباب التى من أجلها ثاروا ضد الرومان ، كان ابرزها ان ساءت معاملة الموظفين الرومانيين لهم بالقدر الذى لم يعد محتملا ، الامر الذى جعلهم يواصلون كفاحهم ضد الرومان الذين بدأو يعدون العدة للزحف على نبتة . حتى أنزلوا بها ضربة دمرت جزءا كبيرا منها ، مما جعل مملكة مروى آنذاك تعمل للاسراع باحضار عدد من العمال المهرة والفنانين من مصر لاصلاح المعابد واعادة تشييد المبانى التى خربها الرومان .

ثم جاء الامبراطور (نيرو) الذى أرسل بعثة من ضباطه الى مروى حيث كان يفكر بجدية فى ضمها الى امبراطوريته لما سمعه عن ثرواتها الكثيرة ، غير ان تقارير هذه البعثة لم تكن مشجعة . فهم قد وصلوا الى بعض الاماكن النائية من المملكة المروية والبعيدة عن مناطق العمران . الأمر الذى جعلهم يصفونها بأنها مقفزة ، وانها عبارة عن صخور وصحارى قاحلة .. ومع ذلك نجدهم يواصلون رحلتهم نحو الجنوب حتى بلغوا منطقة السدود التى لم ترق لهم مما جعلهم يصرفون النظر عن مروى نهائيا .

مروى ومملكة اكسوم (اثيوبيا) :

هكذا وعند القرن الثالث الميلادى بدأت المملكة المروية فى الاضمحلال التدريجى ، وساعد على ذلك هجرة بعض القبائل من جهة الجنوب الغربى (يغلب الظن أنهم وفدوا من منطقة جبال النوبة الحالية) . ثم اخذت هذه القبائل تثير الاضطرابات ، وتتسبب فى اقامة المشاكل ، ودخلت فى مناوشات مع مملكة اكسوم ، مما أثار الاخيرة ودفع ملكها عيزانا الى اعداد جيش كبير لغزو المملكة المروية . وبالفعل تحرك الجيش الاكسومى ودخل فى معركة طاحنة ضد المرويين نتيجة للخلافات

القائمة بين الاكسوميين وهذه القبائل التى وردت الى مروى ثم جاءت الخاتمة بتدمير جزء كبير من مدينة مروى بمبانيها ومصانعها ومزارعها ، مما أدى الى سقوط المملكة المروية فى النهاية .

وقد عُثر أخيرا على لوحة شمال اكسوم ، نقشت عليها قصة تدمير مروى جاء فيها :

«أنا **عيزانا بن ايلا ، من أهالى هالن وحمير وسبا والبجا وكوش ملك الملوك ، قمت بالهجوم على** على أرض النوبة لانهم ثاروا علينا ، وظلوا يتمشدقون بذلك ، وقد هددنا النوبيون مراراً وطلبوا منا ألا نعبر نهر تكاز (العطبرة) وكانوا يهاجمون قبائل المنقورتو كما انهم هاجموا الوفود التى ارسلناها للتحقيق فى هذا الأمر ، فنهبوا أسلحتهم . وقمنا بانذارهم مراراً ولكن دون جدوى ، فاضطررت لأن أرسل اليهم جيشاً لمنازلتهم عند نهر تكاز ، فما كان منهم الا ان لاذوا بالفرار ، فتبعتهم جيوشنا لمدة ٢٣ يوما ، وقتلنا الكثير منهم ، وأسرنا آخرين وأحرقنا مبانيهم ، فوضع بذلك جيش اكسوم يده على غنائم كثيرة من الاطعمة والنحاس والحديد ، وحطم تماثيلهم ومعابدهم ومخازن الغلال واشجار القطن التى القينا بها فى نهر سيدا (النيل) ، ثم تحركنا الى ملتقى سيدا وتكاز (ملتقى نهر النيل والعطبرة) وهكذا حتى قضيت على تحصينات ومدن مروى .

وبسقوط مروى عام ٣٥٠ م طويت صفحة من صفحات تاريخ السودان ، صفحة ظلت مفتوحة امامنا منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادى .

ويقول شينى : « ان تاريخ مروى يقف معلما بارزاً فى افريقيا القديمة ، فقد قامت فى مروى مدينة أفريقية خالصة ارتفعت فوق أرض افريقية وشيدها قوم افريقيون ، مدينة استمرت الف عام ، وهى جديرة بالاهتمام الكبير» .

ونجد انه بسقوط الدولة المروية انقسمت بلاد النوبة الى ثلاثة اقسام :

١ — مملكة النوباديين فى الشمال ، وكانت تمتد من الشلال الاول حتى الثالث ، وكان يطلق عليها ايضا (ماريس) .

٢ — ثم مملكة مقرة التى كانت تمتد من الشلال الثالث حتى قرب كبوشية .

٣ — ومملكة علوة التى كانت تمتد من كبوشية حتى مكان لم يحدد بعد جنوب الخرطوم كل هذه الممالك سنتحدث عنها بالتفصيل فى تناولنا للنوبة المسيحية

ان ماحدث بشمال البلاد لم يمنع الشرق من أن يظل كما هو شامخا تحف به تلال البحر الاحمر والصحراء النوبية ، حيث تعيش قبائل التلال ، وهم من أصل حامى ، يعرفهم المؤرخون بالبلميين ،

من أصل البجة الذين كانوا يقيمون فى تلك المناطق منذ زمن بعيد .

ونجد انه من الصعب العثور على بحوث دقيقة تؤكد وجود علاقات وروابط قائمة بين مملكة مروى ودول غرب افريقيا . ولكن دلت بعض المخلفات على ان هناك علاقات كانت قائمة ومتمثلة فى الروابط الاقتصادية والثقافية التى ربطتها بممالك غرب افريقيا ، بما فيها غانا التى كانت من أقدم واعظم تلك الممالك . كما نجد ان مملكة مروى هى التى كان لها الأثر الكبير على ذلك الجزء من افريقيا . بنقل الحضارة اليها ونظم الحكم وتكنولوجيا التعدين على الأخص ، ويفسر بعض العلماء أن وجود بعض المصنوعات المعدنية وخاصة الحديد منها والفخارية ، مع وجود بعض المبانى ذات الطابع المروى ، كل هذا كان نتاجا حتمياً للاحتكاك الحضارى والالتصاق بالحضارة المروية .

ويذكر البعض انه بسقوط الدولة المروية انتقلت العائلة المالكة الى الغرب ، وبالتالى لحقت بها كل المظاهر الحضارية للدولة المروية .. ولكن نجد أن هذا الافتراض وخلافه ، والذى يقول بانتشار الحضارة المروية بعيدا عن موطنها ، لا زال فى حاجة الى اثبات علمى اكثر مما قدم من قبل .

النوبة المسيحية

دخلت المسيحية بلاد النوبة عن طريق مصر وحققت انتصارات متوالية جعلت الويتها مرفوعة منذ حوالى منتصف القرن الميلادى الأول ، على يد القديس مرقس الذى بنى أول كنيسة فى الاسكندرية ، حيث جذبت هذه العقيدة عدداً كبيرا من سكان الأسكندرية من مصريين واغريق ويهود .

وفى القرن الثانى الميلادى ازداد عدد المسحيين زيادة تطلبت بناء ثلاث اسقفيات ، ثم ارتفع العدد الى عشرين فى القرن الثالث . ومن الاسباب التى ساعدت على نجاح هذه العقيدة والدعوة لها ، اعتبار الناس المسيحية سلاحاً وتعبيراً قومياً ضد الرومان ، وبازدياد نشاط الحركة المسيحية ، قامت مدرسة اللاهوت فى الاسكندرية ، تلك المدرسة التى كان لها الفضل فى قيادة البعثات التبشيرية الى البلاد المجاورة لمصر .

وكان أباطرة الرومان فى بادئ الأمر يضطهدون المسيحيين ويعذبونهم مما ترتب على ذلك بعض النتائج ، منها هجرة عدد كبير من المصريين الى الجنوب ، كما لجأ الكثيرون الى الصحارى المجاورة والاماكن النائية ، واصبحت بذلك طيبة مركزاً هاماً للمسيحية والدعوة لها فى كل من مصر العليا وبلاد النوبة . ونجد أن بلاد النوبة قد انقسمت الى ممالك ثلاث هى :

(١) مملكة نوباديا أو الماريس فى الشمال ، بين الشلال الاول والثالث (اى بين اسوان وكرمة) حيث كانت عاصمتها فى بادئ الامر (بلانه) ، ثم انتقلت فيما بعد الى بقراش (فرس) ، (التى كانت تقع على الحدود بين مصر والسودان حتى تاريخ غرقها) ، وكانت هذه اولى الممالك التى اعتنقت المسيحية لقربها من مصر ولسهولة المواصلات اليها .

(٢) ومملكة مقرة كانت أراضيها تمتد جنوب المملكة السابقة اى من الشلال الثالث الى مكان يعرف بالأبواب جنوب الشلال الخامس وكانت عاصمتها دنقلا العجوز ، وهى قد تنصرت عام ٥٦٦ م .

(٣) ثم اخيرا مملكة علوة من الابواب جنوب الشلال الخامس الى جنوب الخرطوم وعاصمتها سوبا (انظر الخريطة رقم ٥) .

وفى عام ٥٤٠ م .. قام الامبراطور جستنيان باغلاق المعابد الوثنية فى فيلة عند اسوان وغيرها ايذانا بدخول المسيحية أرض النوبة ، هذا وقد بنيت كاتدارائية كبيرة فى فرس عاصمة نوباديا ، (والتى اكتشفت فيها البعثة البولندية (لوحة للعذراء والمسيح) عندما كانت تعمل ضمن برنامج

اليونسكو (لانقاذ آثار النوبة عام ١٩٦٢ م) وقد اثار اكتشافها هذا اهتماماً كبيراً بين المؤرخين فى كل مكان ، حتى عرضت أخيرا فى معرض نيويورك الدولى عام ١٩٦٣م.

وفى عام ٣٨٥ م .. أصدر الامبراطور الرومانى ثيود وسيوس مرسوماً بأن يعتنق جميع سكان الامبراطورية الديانة المسيحية . وعليه أصبحت هذه العقيدة تمثل الدين الرسمى فى كافة أنحاء الامبراطورية ، مما زاد من نشاط البعثات التبشيرية ، فدخل المبشرون بلاد النوبة وانتشروا فى أرجاء ممالكها .

ويرجع الفضل فى دخول المسيحية الى بلاد النوبة ، الى الامبراطور جستنيان وزوجته ثيودورا ، فقد ارسلا القس جوليان الذى وصل بلاد النوبة عام ٥٤٣ م .. ثم بقى فى نوباديا لمدة عامين ، عاد بعدها للقسطنطينية .

ويقول الدكتور مصطفى مسعد ، أن المسيحية شقت طريقها الى الواحة الخارجية التى كانت تقع على طريق درب الاربعين التجارى ، ومنها اتصل التجار المسيحيون بالنوبيين ونشروا المسيحية بينهم ، غير ان تأثير هؤلاء على بلاد النوبة لم يكن كبيرا ، فالجهد الأكبر كان قد قام به القس جوليان الذى نجح فى تشييد عدد كبير من الكنائس فى بلاد النوبة الشمالية .. وكانت المملكة الشمالية أكثر الممالك الثلاث اتصالا بالعالم الخارجى لقربها من مصر ولسهولة المواصلات التى تربطها بها . ولهذا قامت بها كنائس عديدة كما ان عدداً من معابدها القديمة مثل وادى السبوع قد تحول الى كنائس .

وبعد ان غادر جوليان أرض النوبة عائداً الى القسطنطينية ، عين القس لونجينوس ليحل محله ، واصبح بذلك مسئولاً فيما بعد عن نشر المسيحية بين سكان النوبة التى نزل بأرضها عام ٥٦٩ م واستقبل استقبالاً حاراً حيث وجد من النوبيين تجاوباً كبيراً مما سهل عليه مهمته ، لاسيما فى بناء الكنائس ، الأمر الذى جعله يوعز الى ملك النوبة بأرسال وفد لمقابلة الامبراطور فى روما حاملا له القيم من الهدايا .. وبالفعل تكون الوفد النوبى وسافر الى روما حيث استقبلهم الامبراطور استقبالا عظيما . ويعتبر هذا الوفد من اوائل الوفود الرسمية التى أُرسلت الى خارج البلاد فى التاريخ .

وفى عام ٥٨٧ م . ذهب لونجينوس جنوباً قاصدا مملكة علوة بدعوة من ملكها لنشر المسيحية فى المملكة الجنوبية ، وفيها قام بتعميد الملك واسرته والامراء ونجح فى مهمته نجاحاً كبيرا .

وهكذا تم تنصير المملكتين ، نوباديا الشمالية ثم علوة الجنوبية ، اما المملكة الوسطى (مقرة) فقد تم تنصيرها عام ٥٦٩ م ، عندما دخلت فى اتحاد مع نوباديا وبالتالى اصبحت دنقلا العجوز عاصمة للمملكة النوبية المتحدة بينما ظلت فرس عاصمة للجزء الشمالى من المملكة النوبية المتحدة ، وبالتالى

اضحت مركزاً دينياً هاماً فيما بعد . هذا وقد كانت اللغة السائدة فى ايام المسيحية تلك ، هى اللغة النوبية التى يتحدث بها النوبيون(الفاديجا)فى الوقت الحاضر ، وقد حلت محل اللغة اليونانية التى كانت هى لغة الصلاة وظلت تستعمل فى شواهد القبور الى ان حلت محلها اللغة القبطية فيما بعد فى الشواهد وتدوين الوثائق .

ويعتبر العهد المسيحى فى بلاد النوبة عهداً زاهراً من كافة نواحيه : الثقافية والسياسية والاقتصادية . وقد تكشف لنا الآثار التى وجدت هناك قيام حركة فنية رائدة ، الامر الذى يتنافى وما كتبه بعض المؤرخين عن تأخر وبربرية تلك البلاد ، والتى اثبتت فنونها نقيض ذلك تماما ، فقد ظهرت الفنون المصرية والبيزنطية المتمثلة فى الكتابة والرسوم والمصنوعات الفخارية والمبانى جنباً الى جنب مع الفنون النوبية .

وكانت الزراعة والتجارة من أهم الحرف السائدة التى كان يشتغل بها السكان حيث نجد هناك بعض المحاصيل الزراعية واهمها القمح والشعير واللوبيا والنخيل والعنب (الذى كان يصنع منه النبيذ) وهناك المحاصيل التى كانت تزرع فى الجروف ، والجزائر وهى ذات انتاج وفير ، زيادة على ذلك نجد ان السواقى كانت تمثل الوسيلة الرئيسية للرى .

ومما هو جدير بالذكر ، ان جزيرة فرس التى يطلق عليها بالنوبية (آرتى كرجو : اى الجزيرة الناضجة) ، كانت تشتهر ، حتى اللحظة التى غطتها فيها المياه بخيراتها الوفيرة من القمح والذره والخضروات والنخيل ولربما كان هذا من اسباب اختيارها عاصمة للملكة المسيحية . ولابد ان نذكر انه بالرغم من وفرة الانتاج فى بلاد النوبة الا انه لم يكن هناك فائض من المحاصيل للتصدير .

اما الدور الذى لعبته بلاد النوبة المسيحية فى مجال الاقتصاد ، فهى قد ظلت معبراً هاماً للتجارة خاصة والنوبيون كانوا يلعبون دور الوسيط فى تبادل السلع وحماية القوافل التجارية بين مصر والجنوب ، كما كانت للمراكب الشراعية أهمية عظمى فى المواصلات النهرية ، وكانت تصنع عند شاطئ النيل حيث تتوفر أشجار السنط . وقد استمرت هذه الصناعة حتى غمرت المياه تلك الارض .

فى هذه الحقبة بدأ الجمل مسافرا يجتاز الطرق التجارية ، حيث لعب دوراً كبيرا فى تنشيط حركة التجارة بالبر والتى كانت قاصرة على الحمير منذ أقدم العصور مما ادى الى ان تقوم هناك مدن وموانئ تجارية هامة على النيل مثل (تقدى) أو حلفا . وفى هذا المضمار يتحدث الادريسى عن ميناء تجارى هام عند ملتقى النيل وعطبره ، ذلك الميناء الذى كانت تلتقى عنده القوافل التجارية القادمة من موانى

البحر الأحمر ، كذلك السلع التجارية القادمة من الجنوب عن طريق النيل ومن اثيوبيا عن طريق نهر عطبرة .

وكانت هناك كما ذكرنا سابقاً (تقدى) أو حلفا والتى كانت تمثل مركزا هاما على النهر . ويهمنا أن نذكر ان عدد سكان النوبة كان كبيراً فى ذلك الزمان ، اكثر منه فى الوقت الحاضر أو قبل قيام السد العالى ، كما تدل على ذلك خرائب ذلك العهد وكنائسه والمبانى المنتشرة على الضفة الغربية من النيل لاسيما غرب المكان الذى كانت تقع فيها دبيرة .

اما من الناحية السياسية ، فكان على رأس كل من الممالك الثلاث ملك ينصب عن طريق الوراثة ، يمارس سلطاته الواسعة فوق مساحات من الأرض يمتلكها ومن عليها ، والجميع يعملون له ومن أجله .. كما ينوب عنه فى كل المناسبات نائب الملك الذى كان مهامه أن يرأس موظفيه ، وكانت المملكة مقسمة الى أقسام ادارية عدة ، لكل منها رئيس له سلطة مطلقة يعاونه عدد من الموظفين . وقد ظلت الممالك الثلاثة منفصلة الى أن اتحدت مملكة نوباديا ومقرة عام ٥٦٩ م .

ثم كانت مملكة علوة والتى هى مشابهة فى ادارتها للمملكة الشمالية المتحدة ويقول د . شوقى الجمل : « أنَّ مملكة علوة تمتاز بالجاه والنفوذ وبجيش يتفوق عدة وعدداً ، كل ذلك يرجع الى امتدادها وخصوبة أراضيها ووفرة مراعيها ، حيث تتمتع بأمطار الخريف . ولكن رغم ثراء الجنوب نجد ان سكان الشمال كانوا أكثر تحضرا نسبة لموقع ممالك الشمال بالقرب من مصر والبحر الأبيض المتوسط ، وبالقرب من الامبراطورية البيزنطية التى كانت تربطها بها عدة روابط ، منها الدينية والثقافية .

ويضيف د . شوقى الجمل : « أن ثراء مملكة علوة كانت تعكسه لنا كثرة كنائسها واديرتها ونقوشها .. غير أن النوبيين كانوا على اتصال دائم بالامبراطورية البيزنطية التى نشرت ثقافتها وفنونها ، فتأثرت بها تأثيرا تمثل فى النقوش والرسوم البيزنطية المنحوتة على بقايا الفخار بشكل واضح » .

ولكن نجد انه منذ مطلع القرن الرابع عشر بدأت الممالك النوبية فى الضعف والانهيار ويعزى هذا الى عدة عوامل منها :

(١) ظهور قوة تمثلت بدخول الاسلام فى الشمال كما سيأتى ، حيث استولى العرب على مصر منذ القرن السابع . فنشروا فيها الاسلام . وفى الجنوب بدأت بعض القبائل تمارس ضغوطها على بعض الممالك كما حدث لمملكة مروى من قبل .

(٢) ويقول د . شوقى الجمل : « ان المسيحية فشلت فى أن تضم البلاد تحت لواء القومية كما حدث فى مصر ، حيث اتخذها الناس هناك سلاحا قوميا فعالاً ضد الرومان » ..

(٣) ثم هناك ضعف ملوك النوبة وانقسام الامراء وتنافسهم على الحكم والاستيلاء على السلطة ..

لكل ما تقدم ضعفت تلك الممالك وسقطت فى يد العرب .

استمرت العلاقات طيبة بين بلاد النوبة والعالم الخارجى ، خاصة مع الامبراطورية البيزنطية ومصر.. ولكن فى فجر الاسلام بدأت هذه العلاقات تبدو أكثر ترابطاً ، ثم دامت لزمن طويل الى أن دخل العرب مصر ونشروا فيها العقيدة الاسلامية تلك العقيدة التى ما لبثت أن شقت طريقها لجنوب الوادى عبر مسالك شاقة تكتنفها المصاعب وتطغى عليها الحروب الطاحنة .

جاء العرب الذين كانوا أقوى المجموعات البشرية التى دخلت السودان والتى اكتسبت غالبيته الصبغة التى هو عليها الآن ، والتى تتألف عناصرها من سيادة اللغة العربية فى الجزء الاعظم من السودان ثم سيادة العقيده الاسلامية وفلسفاتها بنفس القدر ، وكذلك التقاليد العربية والاعتزاز بها .

صلة النوبيين بالعرب قبل الاسلام :

ولاترجع صلة النوبيين بالعرب الى العصر الاسلامى فحسب بل ترجع تلك الصلة الى العهود السابقة للاسلام ، حيث نجد البحر الأحمر يفصل السودان عن الجزيرة العربية المواجهة له ، ضيقاً وهادئاً وخالياً من أى عوائق ، ولا يتجاوز عرضه المائة وعشرين ميلا ، فهو لا يعوق الاتصال بين الاقليمين ، ولم يكن الطريق عبر البحر الاحمر هو الطريق الوحيد الذى كان يربط بينهما ، بل كان هناك طريق شمالى . أى برزخ السويس الذى كان يلتقى بطريق النيل وكذلك كان هناك طريق جنوبى هو طريق بوغاز (باب المندب) الذى كان يصل السودان عبر هضبة اثيوبيا .

ولاننسى ان الجزيرة العربية ، ذات مناخ جاف وبيئة طاردة دفعت بعض الجماعات للهجرة الى السودان عن طريق البحر الأحمر وبوغاز (باب المندب) ثم عن طريق النيل من الشمال ، فاستقروا فى النوبة الشمالية واختلطوا بالسكان وعمل بعضهم فى مناجم الذهب ، والبعض الآخر بالوساطة التجارية بين شبه الجزيرة العربية وبعض البلاد الاخرى ووادى النيل ، فقد كان الذهب من أهم السلع التجارية فى ذلك الوقت ، ثم الرقيق والصمغ واللبان .

وقد نشطت الحركة التجارية بشكل خاص فى زمن البطالسة والرومان والعهد المسيحى . ويرى بعض المؤرخين كالدكتور مصطفى مسعد ان عدداً لايستهان به من التجار العرب قد أخذوا فى الاستقرار فى اجزاء مختلفة من وادى النيل ، واخيراً لحق بهم عدد كبير من أقاربهم فى موطنهم الجديد .

ثم كان للاسلام عند ظهوره فى القرن السادس الميلادى ابلغ الأثر فى توحيد العرب ، وكانت

العقيدة الاسلامية هى القوة الفعالة والمحركة التى دفعت بهم خارج شبه الجزيرة العربية الى أن وصلوا شواطئ المحيط الأطلسى غربا ، والهادى شرقا ، وقد شملت هذه الفتوحات الاسلامية مصر التى غزاها عمرو بن العاص فى اوائل القرن السابع ، خاصة وقد تطلع العرب عند فتحهم مصر لفتح بلاد النوبة وذلك بغرض تأمين الحدود الجنوبية لمصر، ولتأمين طرق القوافل التجارية ونشر الاسلام .

ويعتقد الدكتور يوسف فضل ، أن دخول الاسلام فى بلاد النوبة لم يكن نتيجة لمعارك حربية ، انما جاء عن طريق العلاقات التجارية بين العرب والنوبة واختلاط التجار المسلمين بالنوبة والتزاوج معهم . وترك العرب اثاراً متمثلة فى تسمية بعض الحلال والقرى فى بلاد النوبة ، ففى وادى حلفا مثلا كانت قرية (دغيم) وحلة (العرب) و (الحسينية) وحلة (البطحاء) وقبيلة (القراريش) . وفى بادئ الأمر قام حاكم مصر العليا ، عبد الله بن أبى السرح بأرسال جيشه فى عام ٦٤١ م ، لبلاد النوبة نتيجة لتعدد غارات النوبيين على حدود مصر الجنوبية ، ولكن لم يستطع العرب هزيمة النوبيين فى تلك المعركة نسبة لاستماتة النوبيين فى القتال وبراعتهم فى الرمى بالسهام ، حتى أطلق عليهم العرب (رماة الحدق) .

واخيراً انتهت هذه الحملة بعقد هدنة بين عمرو بن العاص والحاكم قيرس (المقوقس) النوبى ، غير ان النوبيين قد نقضوا العهد بعد عزل عمرو بن العاص وتولى عبد الله بن أبى السرح حكم مصر ، فعادوا لغاراتهم مرة اخرى على صعيد مصر فأرسل اليهم عبد الله جيساً كبيراً آخر عام ٦٥١م ، توغل حتى دنقلا العجوز عاصمة مقرة المسيحية ، والتى أصبحت فيما بعد عاصمة للمملكة النوبية المسيحية المتحدة فى الشمال .. ولكن عند ملاقاة النوبيين لجيش المسلمين أظهروا استبسالهم فى القتال فى تلك الموقعة التى تعرف بموقعة دنقلا ، وذلك رغم تفوق الاسلحة العربية مثل المنجنيق الذى خربوا به كنيسة النوبة وبعض المبانى الأخرى ، فطلب النوبيون الصلح ووافق العرب على الهدنة لكثرة ضحاياهم فاشتهر هذا الصلح (بالبقط) . والبقط كلمة لاتينية الاصل اشتقت من كلمة (PACTUM) وتعنى اتفاقية أو موادعة . ويقال انها ايضا كلمة مصرية فرعونية تعنى عهد أو معاهدة أو ضريبة عينية ، والملاحظ انها تقرب من الكلمة الانجليزية (PACT) والتى تعنى اتفاقية او معاهدة .

ورد فى هذه المعاهدة ما يلى :

١ — باسم الله هذه اتفاقية بين القائد عبد الله بن ابى السرح وملك النوبة وكل مملكته بين اسوان وعلوة .

٢ — عقد القائد عبد الله بن ابى السرح على الأمان والهدنة بين النوبيين والمسلمين فى صعيد مصر ، وسيكون النوبيون فى أمان وسلام تحت رعاية الله تعالى ورسوله محمد ولم نحاربكم أو نعلن الحرب عليكم طالما احترمتم بنود هذه الاتفاقية .

٣ — ويمكن للنوبيين ان يدخلوا بلادنا كمسافرين لا للاقامة ، وعليكم حماية المسلمين الذين يسافرون الى بلادكم حتى يغادرونها .

٤ — وستحافظون على المسجد الذى بنى فى مدينتكم (دنقلا) ولا تمنعوا أحدا من الصلاة فيه .

٥ — وفى كل عام يقدم النوبيون الى امام المسلمين ٣٦٠ رأسا من الرقيق ، وفى بعض النصوص (٤٠ رأسا للحاكم) .

٦ — وفى حالة نقض النوبيين لنصوص هذه المعاهدة سيلجأ العرب الى وسائل عدوانية ضد النوبيين .

وقد أمر الخليفة العباسى (المهدى) أن يدفع للنوبيين مقابل الضريبة السنوية من الرقيق ١٣٠٠ اردب من القمح ، و١٣٠٠ زجاجة نبيذ وحصانان و ١٣٦ قطعة قماش .

وفى عهد الخليفة المعتصم لاحظ أن قيمة هذه السلع اكبر مما يدفعه النوبيون . هذا مما جعله يلغى الجزء الخاص بالنبيذ وأبقى على القمح والاقمشة .

ولكن هذه الاتفاقية كما يبدو لنا لم تكن هدنة بالمعنى المألوف ، وانما تبادل منافع واتفاق تجارى ، ولم تقم الحرب الا لحماية جنوب مصر من الغارات النوبية . ولاننسى أن لهذه الاتفاقية التاريخية مدلولاً عظيماً ، اذ أنها أول معاهدة من نوعها بين المسلمين والنوبيين جاءت نتيجة لمشاورات دبلوماسية على مستوى رفيع . ويبدو أن البقط هو الذى كان يقرر العلاقات بين العرب والنوبة لبضع قرون . فكان النوبيون يشكون مر الشكوى من بعض بنودها ولاسيما تلك التى تنص بدفع ٣٦٠ رأسا من الرقيق ، مما أثار جدالاً عنيفاً فى بلاط الملك ، فاظهر الأمير جورج النوبى ابن الملك زكريا بن ينس استياءاً شديداً ضد سيطرة العرب . كل ذلك دفع بالملك ليقرر ارسال ابنه جورج الى بغداد عاصمة الدولة العباسية ، لمقابلة الخليفة العباسى والتفاوض معه فى مسألة البقط ، وذكر لابنه جورج انه اذا تبين له ما للمسلمين من بأس وشدة فما عليه الا أن يسأل الخليفة متواضعاً تخفيف مواد البقط ، واما اذا كانوا على غير ذلك فلابد أن نعد العدة لمحاربتهم .. وما أن دخل جورج بغداد الا وبهرته عظمتها ونفوذ المسلمين عليها ، خاصة وقد استقبله الخليفة استقبالا حاراً ، وقدم له هدايا قيمة ، وألغى المتأخرات من قيمة البقط .

نجد أن موقفا مثل هذا ان دل على شئ انما دل على استراتيجية الدبلوماسية النوبية التى كانت متبعة فى ذلك الوقت ، كما نجد أنه يكشف عما كان يكنه العرب للنوبيين ، رغم الحروب التى دارت بينهما .. من هنا تبين لنا الغرض الدبلوماسى من رحلة الأمير جورج والتى كان يسعى فيها لاكتشاف قدرات العرب العسكرية مع مكامن الضعف أن كانوا يملكون .

رغم هذا نجد أن النوبيين لم يكونوا راضين عن تنفيذ بنود الاتفاقية خاصة البند الخاص بارسال ٣٦٠ رأسا من الرقيق ، وفى النهاية توقف تنفيذها خاصة عندما ضعفت دولة المسلمين بمصر فى الفترة الأخيرة من حكم الاخشيديين حين اضطربت الاحوال فى شمال الوادى ، فحدثت المجاعة نتيجة لانخفاض النيل ، اضف الى ذلك ظهور الجيوش الفاطمية عند حدود مصر الغربية .. ثم نجد ان النوبيين لم يقتصر الامر عن امتناعهم من دفع البقط ، بل شنوا الغارات فوق الاراضى المصرية ، كالواحة الخارجية واسوان ودافو .

وفى عام ٩٦٩ م عندما خضعت مصر لحكم الفاطميين ، أرسل جوهر الصقلى الذى فتح مصر من قبل برسوله أحمد بن سُليم الاسوانى مبعوثا الى الملك جورج ملك النوبة يدعوه لدفع البقط . ولكن الأخير لم يجبه على طلبه ، مما ادى الى توتر العلاقات بين النوبيين ودولة الفاطميين فى مصر .

وكان العرب طوال هذه العهود ينزحون الى بلاد النوبة السفلى ، فاستقرت بذلك بعض الجماعات من قحطان وربيعة وقريش فى اسوان ، كما اشترى بعضهم جزءا من الأرض فى بلاد النوبة ، فكانوا بذلك يدفعون الخراج لملك النوبة المسيحى ، وعاش هؤلاء مع النوبيين فى سلام ، واختلطوا بهم اختلاطا أدى الى اعتناق كثير من النوبيين للدين الاسلامى رغم جهلهم للغة العربية .. ويقال ان الذى ساعد فى نشر العقيدة الاسلامية بين النوبيين تعلم بعض العرب لغة النوبيين .

وكان نتيجة ماحدث فى ذلك الجزء من بلاد النوبة السفلى – أن قامت امارة عربية هى (امارة بنى كنز) التى لعب امراؤها دوراً هاماً فى تاريخ المنطقة ، وفى اقامة الصلات بين المسيحية والاسلام ، ثم فى الاختلاط الذى تم بين العرب والنوبة .

ويرجع أصل (بنى كنز) الى قبيلة ربيعة التى استقرت جنوب اسوان فقوى نفوذ زعمائها حتى شمال المنطقة التى تمتد من اسوان الى كرسكو ، ثم اسس هؤلاء (الامارة) التى اتخذت اسوان مركزاً لها حتى اعترفت بسلطتها الدولة الفاطمية . وترجع تسمية هؤلاء العرب بـ (بنى كنز) الى اللقب الذى انعم به الخليفة (الحاكم بأمر الله) الفاطمى على زعيم ربيعة الذى كان يدعى (ابو المكارم هبة الله) عندما

التى القبض على أحد الامويين واسمه (ابو ركوة) الذى فر من مصر قاصدا الجنوب . وكان الخليفة يطلبه ، فاستعان بابى المكارم للقبض عليه ، وفعلا نجح الأخير فى تلك المهمة ، فانعم عليه الخليفة بلقب (كنز الدولة) . وقد توارث هذا اللقب زعماء ربيعة من بعده ، فاطلق على القبيلة اسم بنى كنز ، وهم اجداد الكنوز الحاليين الذين ظلوا يتخذون من منطقة اسوان مقرا رئيسيا لهم حتى قيام السد العالى الذى ادى الى تهجيرهم مع بقية النوبيين المصريين الى كوم امبو .

وقد ظلت علاقة النوبيين بالفاطميين الذين استمر حكمهم لمصر من (عام ٩٦٩ م الى ١١٧١ م) تقوم على حسن الجوار وذلك رغم التحرشات التى كانت تحدث بينهم من حين لآخر ، خاصة وقد كثر عدد النوبيين فى مصر فى تلك الفترة حيث كانوا يعملون اساساً كجنود فى الجيش الفاطمى . والجدير بالذكر أن والدة أحد الخلفاء الفاطميين كانت نوبية الأصل .

وفى عهد الأيوبيين الذين خلفوا الفاطميين على حكم مصر عام ١١٧١ م . ساءت العلاقات بين الجنود النوبيين من جهة و (العرب والمصريين) من جهة أخرى ، فقام الجنود النوبيون بثورتهم لصالح الفاطميين ، مما نتج عنه نشوب معارك عنيفة فى شوارع القاهرة ، انتهت بهزيمة الجنود النوبيين وسيطرة الأيوبيين على زمام الأمور .

رغم ذلك فقد ظل الكنوز على ولائهم للفاطميين ، ومقاومتهم لصلاح الدين الايوبى ، مما دعاه الى ارسال حملة الى بلاد النوبة للقضاء على نفوذ بنى كنز . فقد اعدت الحملة حتى وصلت ابريم وانتصرت على الجيش النوبى فيها ، لم تقف عند ذلك ، فقد حطمت كنيستها وقامت بأسر ٧٠٠ر٠٠٠ أسير بينهم اسقف أبريم .. هذه حسب رواية أبى صالح . ويعتقد أن هذا العدد به شئ من المبالغة ، شأن ما كانت تتميز به كتابات المؤرخين العرب القدامى . فلو كان عدد الاسرى كبيراً بهذا القدر لما استطاع النوبيون استعادة ابريم واقصاء العرب عنها فيما بعد .

وقد أرسل الايوبيون حملة أخرى كان هدفها القضاء على كنز الدولة لظنهم أنه تعاون مع الجيش النوبى بغرض ارجاع الفاطميين الى الحكم . وقد نجحوا فى هزيمة قواته ثم القوا القبض عليه وقتلوه .. وبعد هذه الهزيمة انسحب بنو كنز جنوبا فى أرض النوبة[1] .

بالرغم مما لاقاه بنو كنز ، الا أنهم لم يفقدوا الأمل بل اختلطوا ببقية النوبيين وكونوا جبهة اخرى استجمعوا فيها قواتهم ثانية واستعادوا اسوان مقرهم الرئيسى عام ١٣٨٨ م .

اما علاقة النوبيين بوجه عام مع الايوبيين لم تكن بالمستوى المطلوب بل كانت الخلافات قائمة

(1) ربما كان هذا هو السبب في اننا نجد قرى الكنوز منتشرة في اماكن عديدة من المديرية الشمالية وكانت احدى هذه القرى تقع غرب حلفا تجاه دغيم بالقرب من بوهين .

بينهما ، حيث كانوا يقومون بتحركات معادية لهم على الدوام ، مما أدى بأن يحد صلاح الدين من تعيين النوبيين فى الجيش الايوبى واستبدالهم بعناصر شمالية : كردية وتركية .. طيلة هذه العهود وكثير من النوبيين ينزحون الى مصر ، فأثروا فى حياتها كثيراً باشتغالهم فى مرافق كثيرة بما فى ذلك الاعمال الحرة .

ويعتقد الدكتور مصطفى مسعد أن العناصر النوبية فى مصر اعتنقت الاسلام ، مما كان له اكبر الأثر لانتشاره فى بلادهم ، إذ عاد هؤلاء لاهليهم ونشروا الدين الاسلامى والثقافة العربية .

هذا ما كان يجرى على النيل ، اما اذا اتجهنا شرقا الى البحر الاحمر بشواطئه ، نجد ان هناك حوادث وقعت كان لها أثر كبير غير مجرى التاريخ فى علاقات النوبيين بمصر .. فعند هذه الشواطئ قام ميناءان كان لهما دور هام فى دعم هذه العلاقات ، وهما (عيذاب ، شمال حلايب ، وسواكن الحالية) . وقد ذاعت شهرة عيذاب منذ القرن الثانى عشر بعد أن تحولت قوافل الحجيج من مصر وبلاد المغرب عن طريق برزخ السويس الى الطريق الذى يشق الصعيد الى قوص على النيل فى مصر العليا ومنها شرقا بالبر الى عيذاب ، ثم بالبحر الى جدة .

وبالاضافة لوظيفتها كميناء للحجيج ، كانت عيذاب تقوم بتصدير الذهب الذى كان يقوم بالتنقيب عنه التجار العرب فى وادى العلاقى ومرتفعات البحر الأحمر ، كما كانت تصل اليها السفن محملة بالبضائع من الشرق الاقصى والجزيرة العربية وشرق افريقيا ، وعليه فقد غدت عيذاب الميناء الرئيسى لمصر على البحر الاحمر منذ اواخر الدولة الفاطمية وحتى اوائل أيام دولة المماليك الثانية ، لكل ذلك قام المماليك بتعيين الوالى والقاضى وكلاهما مصرى حتى يتم لهم الاشراف التام عليهما .

وقد قام الصليبيون أبان الحرب الصليبية بمهاجمة سفن الحجيج واغراق بعضها ، مما دعا المماليك الى ارسال جيوشهم لحماية عيذاب من الخطر الصليبى الذى كان يتهددها ، ثم الاستيلاء فيما بعد على ميناء سواكن . فتم لهم بذلك احكام الرقابة ، وفرض السيطرة الاسلامية على الساحل الافريقى للبحر الاحمر .

وقد أدى احتلال المماليك لعيذاب وسواكن بالاضرار بمصالح النوبيين الاقتصادية نتيجة لعزلهم عن العالم الخارجى خاصة وقد كانت نسبة كبيرة من تجارتهم تمر عن طريق هذين المينائين وخاصة سواكن التى كانت تعتبر المنفذ الرئيسى للممالك النوبية ، وقد اثار هذا بالطبع حفيظتهم نحو المماليك ، زيادة على ذلك فقد برزت مؤازرة النوبيين فى حربهم ضد المسلمين ، وتعاطفهم مع الاقباط

والمسيحيين فى مصر ، الذين لاقوا بعض الاضطهاد على يد المماليك .. ويذكر بعض المؤرخين أن النوبيين كانوا يحجون بصفة مستمرة الى بيت المقدس مما أدى الى اطلاق اسمهم على أحد الاماكن فيه .

وكرد فعل لاحتلال هذين الميناثين قام النوبيون بالهجوم على عيذاب ثم على مدينة اسوان وبالتالى أرسل السلطان بيبرس المملوكى جيشاً لغزو النوبة ، ولكن لم يكتب له النصر النهائى على النوبيين ، مما جعله يقوم بارسال جيش آخر استطاع ان يحقق نصرا حاسما على النوبيين ، ثم خيرهم بين الاسلام او الجزية او القتال .. فاختاروا الجزية . واصبحوا من اهل الذمة ، وصار ملكهم نائباً عن السلطان المملوكى ، زيادة على ذلك اصبح جزء من بلادهم ملكاً خاصاً للسلطان ثم انشئ فى مصر ديوان تسمى (ديوان النوبة) للاشراف على بلاد النوبة ، وهو اشبه بالوزارة فى الوقت الحاضر .

ولكن رغم استمرار تبعية بلاد النوبة للمماليك حتى عام ١٣١٦ م الا انه كانت تحدث بين الحين والحين بعض الثورات التى كان الغرض منها اقصاء الملك الموالى للمماليك ، وتنصيب ملك آخر مستقل عنهم مما أدى الى نشوب الحرب مرات عديدة بينهم وبين المماليك ، وكانت فى الغالب تنتهى بأقرار النظام القديم اى تثبيت الملك المملوكى .

وقد اضعفت هذه الحروب كلاً من العرب المسلمين والمماليك بوجه خاص ، مما ادى ان تستقر بعض الجماعات العربية فى بلاد النوبة طوال هذه الفترة ، ومن اهم هذه الجماعات العربية بنو كنز (الكنوز) الذين استقروا فى منطقة النوبة الجنوبية بعد طرد الايوبيين لهم من اسوان فاختلطوا بالنوبيين فى المنطقة واحتفظوا بلغتهم العربية الى جانب اللغة النوبية التى كانوا يجيدون التحدث بها .

وهناك شبه بين اللغة الكنزية ولغة الدناقلة ، حيث يرجع ذلك الى أن الايوبيين عندما اجلوا بنى كنز من اسوان استقر بعضهم فى منطقة دنقلا ، فأثروا على لغة الدناقلة . ثم أن كنز الدولة نفسه حكم من دنقلا ويرجع توليه الحكم الى حدث معين يمثل فى حد ذاته نقطة تحول فى تاريخ النوبة ، فقد عين السلطان المملوكى أحد امراء النوبة المسلمين ويدعى (عبد الله بن شمبو) ملكاً عام ١٣١٦ م ، مما جعل (كنز الدولة) يطالب بالملك ، فهو بالاضافة الى كونه مسلماً فانه كان ابن اخت ملك النوبة خاصة والعرف كان يقضى آنذاك بتوريث ابن الاخت .

وعليه قام كنز الدولة باغتيال الملك الجديد والاستيلاء على الحكم حيث حكم (بنو كنز) الدولة النوبية من عاصمة النوبة (دنقلا العجوز) وحدث اثناء الحرب التى نشبت بين بنى كنز والمماليك عام

١٣٦٦ م ، أن أرسل السلطان المملوكى جميع من كان عنده من اسرى بنى كنز الى حاكم اسوان حيث قام باغتيالهم جميعاً ، فأثار هذا بنى كنز الذين قاموا بالهجوم على اسوان ، فهزموا المماليك وقتلوا عدداً كبيراً من السكان وفى النهاية قاموا بنهب المدينة وتدميرها . وهكذا ظلت الحرب سجالاً بين المماليك وبنى كنز الى أن ضعفت سلطة المماليك الامر الذى أدى الى انتصار بنى كنز ، الذين استقر كثير منهم قرب منطقة اسوان والشلال الاول وهذا هو محور العلاقة التى تربط الكنوز بالشلال ، وهو سبب رئيسى لاطلاق اسم الشلالية احياناً على الكنوز .

ولم يستمر حكم بنى كنز للنوبة فترة طويلة ، الا انه لم يرد – رغم ذلك – اسم ملك مسيحى بعد كنز الدولة ، والراجح ان الملوك الذين توالوا على الحكم هم من العرب أو المستعربين ، ولما كانت الاحوال مضطربة فى ذلك الوقت ، فان عدداً كبيراً من العرب قد هاجر من صعيد مصر فراراً من المماليك الى بلاد النوبة وازداد هؤلاء اختلاطاً بالنوبيين فكانت النتيجة هى انتشار الاسلام بين سكان البلاد حيث اعتنقه اغلبهم فى نهاية القرن الخامس عشر .

وقد وصلت الهجرات العربية الوافدة من الشمال الى بلاد علوة جنوبا ، كما وفدت اليها موجات عربية أخرى من شرق السودان . فاستقرت قبائلها بين المنطقة الواقعة بين النيل وعطبره .. بعد أن قوى نفوذ هذه القبائل نجدها فى مستهل القرن السادس عشر قد دخلت فى تحالف مع سلطنة الفونج للقضاء على مملكة علوة المسيحية والاستيلاء على عاصمتها سوبا .

وهكذا ظلت المسيحية لمدة سبعة قرون من الزمان متماسكة فوق أرض النوبة « السفلى والعليا » ولم يتم القضاء عليها واحلال السلام محلها عن طريق المعارك الحربية ، لان الاسلام لم يفرض بقوة السلاح ، انما تم ذلك سلميا وبعد فترة طويلة من الزمان .. وكما يعتقد الدكتور يوسف فضل أن ذلك كان فى الواقع نتيجة للعلاقات التجارية بين العرب والنوبيين واختلاط العرب وتزاوجهم بسكان أرض النوبة .

وجدير بالذكر ان سيطرة المسلمين على بلاد النوبة لم توصف بالشدة على الاطلاق ، نلاحظ ذلك فى وقف تنفيذ معاهدة البقط مع اشاعة السلام بعد أن انحسرت تلك الحروب المستمرة والتى كانت تنشب بين الطائفتين على الدوام .

ويذكر المؤرخون أيضا ، ان العهد المسيحى كان يتميز بالاستقرار والقوة وتركيز السلطة .. انعكس ذلك فى ازدهار الفنون المحلية وايضا البيزنطية ثم المصرية واخيرا الفنون المسيحية ، كل هذه الفنون

كانت سائدة فى تلك الفترة ، وبالطبع فأن ذلك لاينطبق على أواخر العهد المسيحى حيث نجد أن الحروب التى كانت تدور بين النوبيين والمماليك فى تلك الفترة قد أدت الى استنزاف موارد النوبة وتعطيل طاقات بنيها .... وقد ظلت بلاد النوبة طوال عهد الدول التى توالت على مصر كدولة الطولونيين والاخشيديين والدولة الفاطمية والايوبية ثم دولة المماليك – حسب ما كتبه المؤرخون ، ظلت منفذا تجارياً هاماً وموردا غنيا للذهب والعمال والجنود والموظفين الذين أثبتوا براعتهم وأمانتهم واخلاصهم فى العمل فى شمال البلاد .

ثم كانت تلك البلاد (أى بلاد النوبة) حسب ما كتبه الدكتور مصطفى مسعد ، « ملجأ آمناً للفارين من الشمال وموطناً رحبا للوافدين منه » .

النوبة فى عهد المماليك

ان المكانة التى احتلها المماليك هى التى فرضت علينا التحدث بأسهاب عنهم وهنالك نضال النوبيين ضد المماليك ، الذى استمر زمناً طويلاً أيضا يجبرنا للعودة لهم ثانية .

فى ذلك العهد ظلت بلاد النوبة كما هى غير أن عدد المسلمين قد أخذ يزداد فيها ولاسيما الذين هاجروا اليها واستقروا فيها ، ولا زال بعض احفاد المماليك يسكنون حتى يومنا هذا فى مناطق متفرقة من دنقلا وحلفا وبلاد النوبة المصرية .

وفى عام ١٢٧٢ م . تولى عرش النوبة ملك اسمه (داؤد) والذى نجده بعد عام من توليه ، يرفض دفع البقط الذى اتفق عليه من قبل . ولم يكتف بذلك بل القى القبض على عدد من العرب وزج بهم فى السجن وهاجم بعض اجزاء صعيد مصر . وظل النوبيون يتعرضون الى قوافل المماليك التجارية وهى فى طريقها الى عيذاب .

كان سلطان المماليك فى مصر ، الظاهر بيبرس لم يكن راضياً عن هذه التصرفات ، ومما زاد الامر سوءاً تمسك النوبيين عن ايمان مطلق بعقيدتهم المسيحية مما مهد لهم أن يلتقوا فى شبه تحالف مع الصليبيين الذين كانوا فى حالة حرب مع مصر . تلك بعض الأسباب التى ساعدت على التوتر فأدت فى النهاية الى ازمات اكتنفت العلاقات بين النوبيين والمماليك .

فى تلك الاثناء والتوتر مازال قائما بين النوبيين والمماليك . حدث أن لجأ الى مصر إبن اخت الملك داؤد واسمه (شكندة) جاء يطلب العون على خاله داؤد ، فما كان من السلطان بيبرس الا ان لبى طلبه وارسل معه جيشاً كبيراً تحت قيادة اثنين من كبار قواد المماليك الذين دخلوا مع النوبيين فى معركة ضارية ، انزلوا فيها الهزيمة بالقوات النوبية قرب دنقلا ، ونُصب شكندة ملكاً على بلاد النوبة ، وتعهد بان يدفع نصف خراج بلاده للسلطان بيبرس على ان ينفق النصف الآخر على ادارة بلاده وحمايتها ، وتعهد ايضا على أن يدفع (٥ دنانير من الذهب) على كل ذكر بالغ فى بلاد النوبة مقابل بقائه وأهل بلاده على الدين المسيحى .

اما الملك داؤد فبعد هزيمته فر جنوبا الى علوة يطلب نصرة مليكها الذى تملكه الرعب بعد هجوم المماليك الاخير على النوبيين ، الامر الذى جعله يلقى القبض على داؤد وية.ر ارساله الى السلطان بيبرس الذى اعتقله فى القلعة الى أن مات .

وقد ترتب من حملة بيبرس على بلاد النوبة . أن اصبحت مملكة مقرة جزءا من السلطنة

المملوكية ، وأصبح النوبيون يدفعون الجزية للسلطان المملوكى ، كما لم يزل ديوان النوبة فى مصر يلعب دورا كبيرا فى شئون بلاد النوبة .

ولم يحكم شكندة الا عاما واحدا ثم قتل وعين محله آخر يدعى (برك) وأول عمل قام به الملك الجديد هو محاولته الجادة للتخلص من الخضوع للدولة المملوكية ، الأمر الذى جعله يتجاوزها فى الكثير من مسئولياتها ، هذا مما ألب عليه السلطان قلاوون (الذى خلف بيبرس) فأرسل جيشاً تمكن فى النهاية من اخضاع برك ، واجلس مكانه ملكا اخر اسمه (سمامون) .

كل ذلك يوضح مدى تبعية بلاد النوبة للمماليك ، اذ أن تعيين ملوك النوبة السفلى لم يكن يتم الا بموافقة السلطان المملوكى فى مصر . وبمرور الايام لم يقتصر نفوذ المماليك على النوبة السفلى فحسب ، بل تعداها حتى مملكة علوة والتى قوى نفوذها عليها مما جعل ملوكها يتقربون للسلطان المملوكى بالهدايا .. وقد توالت حملات المماليك على النوبة كلما بدرت محاولة ملوكها للخروج عن الولاء لسلطان مصر ، وقد أدت هذه الحملات فى النهاية لكثير من الدمار فى أرض النوبة .

وفى عهد السلطان خليل بن قلاوون عام ١٢٩١ م ، تأخر ملك النوبة فى ارسال البقط والجزية ، الأمر الذى جعل السلطان يقوم بأرسال حملة وصلت الى جنوب دنقلا ، وبوصولها فر ملك النوبة هارباً امام الجيش المملوكى ، كما هجر كثير من النوبيين ديارهم بعد ان اصابها الكثير من الخراب ، هذا وقد عين قائد الجيش ملكاً جديداً فى اجتماع حضره اعيان النوبة فى احدى كنائس دنقلا ، اقسم فيه الملك الجديد ولاء الطاعة للسلطان المملوكى .

وفى عهد السلطان ناصر بن قلاوون ، فر الى مصر امير نوبى يدعى (نسلى) واقام عند السلطان واعتنق الاسلام ، فتغير اسمه الى عبد الله وكان ملك النوبة آنذاك يدعى كرنبس الذى تأخر عن دفع الجزية ، فأرسل السلطان الناصر جيشاً عام ١٣١٦ م ، استطاع أن يهزم كرنبس ليتوج (عبد الله) ملكا على النوبة . اما كرنبس فقد نقل الى مصر حيث اعتنق الاسلام هناك . وبدخول تلك الحملة فى عهد الناصر لبلاد النوبة جاءت نهاية الحكم المسيحى فى تلك البلاد .

ولم يستتب الامر للملك (عبد الله) الذى كان قاسياً ، حتى اغتاله النوبيون لقسوته وشدته ، خاصة وأن كثيراً من المسلمين ، من الكنوز وغيرهم كانوا يرون أنهم أحق بالمُلك لسبقهم فى الاسلام ونصرتهم للدولة على اعدائها مرارا ، ثم هناك مصاهرتهم للبيت المالك نفسه ، لاسيما وقد ظهر على المسرح من جديد (كنز الدولة) بعد أن جمع حوله بعض القبائل الموالية له فنادوا به ملكا للنوبة ،

غير ان السلطان ناصر رأى ان فى هذا الوضع مع الاسلوب الذى تم به تحدياً واهانة للسلطة المملوكية التى كانت تملك امر ابعاد الملوك وتعيينهم ، لذلك رفض السلطان الاعتراف بالملك الجديد (كنز الدولة) وارسل جيشا كبيرا حتى يعود كرنبس ملكاً على بلاد النوبة من جديد بعد ان اعتنق الاسلام .

وهكذا ظل المماليك يشنون حملات متتابعة على بلاد النوبة الى ان قضوا على الممالك المسيحية فيها ، واخذت الجماعات العربية تتوافد على هذه البلاد وتنتشر الاسلام فى ربوعها .

وحوالى القرن الخامس عشر كان الأمر قد استقر للدين الجديد فى أرض النوبة ، واندمجت الجماعات العربية مع أهالى النوبة ، فتزاوجوا معهم مما ساعد على تحويل البقية الباقية من المسيحيين النوبيين الى الدين الاسلامى ، كما انتشرت اللغة العربية وحلت مكان اللغة النوبية فى المكاتبات وخربت الكثير من الكنائس النوبية فتحول بعضها الى مساجد .

هكذا نجد أن فى الهجرة التى قامت بها الجماعات العربية للنوبة والتزاوج الذى تم بين الجماعتين ، قد ترتب عليه ظهور القبائل النوبية المستعربة ، كالكنوز والمحس والسكوت والدناقلة .. وقد ظل الكنوز يمثلون أقوى هذه العناصر فى بلاد النوبة لزمن غير قصير .

مملكة علوة :

لم يقتصر نشاط العرب على مملكة النوبة السفلى ، فقد اندفعت جماعات من عرب (جهينة) عبر البحر الأحمر الى شرق السودان واتجهوا غربا وجنوبا ، واخيرا استقرت هذه الجماعات العربية فى مناطق عديدة ، وقاموا ببناء المساجد خاصة فى سوبا عاصمة مملكة علوة المسيحية التى اصابها الضعف واهملت كنائسها ، فتكاثر العرب فيها وتزايدت اعدادهم على السكان الأصليين حتى اعتنق شعب علوة الاسلام ، وقد ساعد على اعتناقه انهم لم يعلنوا ولاءهم المطلق للمسيحية فيما مضى .

وقد ورد فى كتابات المؤرخين أنه حتى الذين كانوا على ذاك الدين (أى المسيحية) قد جهلوه . ويقول البروفسور شبيكة (ان الاسلام انقذهم من العبودية لملوكهم) . وفى النهاية نجد أن اللغة العربية قد تغلبت على اللهجات المحلية .

العوامل التى ساعدت على هجرة العرب وانتشار اللغة العربية وثقافتها والدين الاسلامى

يجدر بنا أن نقف قليلا لنبحث فى العوامل التى شجعت الهجرة العربية ، ثم ساعدت على انتشار اللغة العربية والعقيدة الاسلامية فى بلاد النوبة وبقية أجزاء السودان .

اولا : هناك تشابه بين السودان الشمالى وشبه الجزيرة العربية من حيث طبيعة الارض والاحوال المناخية ، حيث كانا يمثلان قطعة ارض واحدة فى العصور الجيوليوجية العتيقة ، ثم انشطرت الى قطعتين بفعل الحركات الارضية التى نتج عنها الأخدود فبرز للسطح البحر الأحمر الذى فصل بين الجزيرة العربية من ناحية وشمال افريقيا من الناحية الأخرى .

ثانيا : من حيث المناخ ، فكلاهما يقع فى الجزء الشرقى من الصحراء الكبرى ، لذا نجد أن الجفاف من مميزات المناخ فى شمال السودان والجزيرة العربية .

ثالثا : يتمتع أواسط السودان بمراع واسعة بفضل أمطار الخريف التى تهطل فيه وتساعد على نمو الحشائش الصالحة للمرعى مما جذبت موجات عربية رعوية للمرعى .

رابعا : نجد ان البحر الأحمر لايعتبر حاجزا قويا حتى يمنع وصول عرب الجزيرة الى السودان اذ لايزيد عرضه عن ١٢٠ ميلا ، (فهو واحد من البحار الهادئة والخالية من العوائق الطبيعية) .

خامسا : ومنذ ان تولى حكم مصر ولاة من غير العرب ، من العهد الطولونى وحتى عهد المماليك فضل كثير من العرب الهجرة الى الجنوب .

سادسا : نلاحظ أن الثورات والاضطرابات فى مصر ارغمت اعداداً كبيرة على الهجرة الى السودان ومعظمهم ان لم يكن كلهم من العرب والمسلمين .

سابعا : رحب النوبيون بتلك الوفود العربية فتناسلوا مع بعضهم بعضا . الامر الذى شجع الكثيرين منهم للهجرة الى بلاد النوبة ومنها جنوبا الى بقية أرجاء السودان .

النوبة والفونج

عند مطلع القرن السادس عشر قامت فى السودان مملكة الفونج الاسلامية أو السلطنة الزرقاء ، وكان يرأسها عمارة دنقس فى عاصمته سنار – ومعظم معلوماتنا عن هذه المملكة مستقاة من مصادر دوّنها عدد من الرحالة الأجانب الذين زاروا سنار فى ذلك العهد – ومن ضمن هؤلاء يهودى اسمه ديفيد روبينى ، ويعتقد البروفسور مكى شبيكة ان مذكراته جاءت مشوهة فى كثير من الأحيان ، حيث املاها عند وصوله الى وطنه فى اوربا ، وهذا ما كتبه البروفسور شبيكة عن روبينى .

« ترك لنا روايات مشوشة مضطربة فيها فجوات وفيها اسماء لاماكن وشخصيات يصعب تحقيقها وانطباقها على الأسماء المعروفة لدينا واختلف الباحثون فى تحديدها » .

ويتضح من هذه المذكرات أن بلاد سكوت والمحس لم تكن ضمن ممتلكات السلطنة الزرقاء ، بل كانت خارجة عن نطاق نفوذها الذى كان يمتد من فازوغلى جنوباً حتى الشلال الثالث شمالاً ويعنى هذا انها اشتملت على معظم اراضى النوبة العليا (علوة وجزء كبير من مقرة) . وقد أرسلت السلطنة الزرقاء حملة حربية لاخضاع بلاد النوبة الا ان الاتراك هزموهم فى حنك وبذلك ظلت بلاد سكوت والمحس وشمالها تابعة للدولة العثمانية ويحكمها ضمن بلاد النوبة الحاكم حسن قوسى ، الذى كان يتمتع بقسط من الاستقلال الذاتى فى عاصمته الدر ، وعرف هؤلاء الحكام بالكشاف الذين كانوا يدينون بالولاء والطاعة للسيادة العثمانية ، وبما أن الاتراك العثمانيين كانوا هم المسيطرين على أرض النوبة الشمالية لابد أن نتطرق اليهم فى الصفحات التالية بأيجاز .

النوبة والاتراك

فى تلك الحقبة التى كان الاتراك يسيطرون فيها على بلاد النوبة ، لم يُكتب الكثير عن النوبيين ، ففى هذه الفترة فقدت تلك البلاد أهميتها ، وانتابها الفقر ، ولكن بظهور حدثين هامين فى القرن التاسع عشر تغير وجه الحياة فيها ولابدّ ان نتطرق اليهما :

أولا : قامت دولة المهدية فى السودان عام ١٨٨٤ م .

ثانيا : حدث الغزو الانجليزى لمصر فى عام ١٨٨٢ م .

وكان للحدثين تأثير كبير على تطورات الأحداث فوق أرض النوبة التى كانت آنذاك مقسمة الى قسمين : (١) النوبة السودانية ، (٢) والنوبة المصرية . وكانت وادى حلفا تتبع لمصر . وكان الشلال الثانى تقريبا هو الحد الفاصل بين القطرين .

وفى مطلع القرن السادس عشر ، عندما فتح السلطان سليم مصر للأتراك العثمانيين ارسل أحد أعوانه ويدعى (حسن قوسى) مع بعض الجند العثمانيين من (البوسنة) أرسلهم الى بلاد النوبة – وبعد ان تمّ لهم غزو أرض النوبة ، اقاموا تحصينات فى أسوان والدر وصاى – وتولى حسن قوسى حكم بلاد النوبة وتتابع أحفاده فيما بعد على الحكم بأسم العثمانيين وكانوا يعرفون بالكشاف – وكان أول هؤلاء الحكام هو حسن كاشف الذى حكم البلاد حوالى ١٨١٥ م وكان أخواه حسين ومحمد كاشف يحكمان الجزء الجنوبى من بلاد النوبة بما فى ذلك سكوت والمحس .. وأقاموا فى بلاد النوبة قضاة للفصل بين الناس مقابل مرتبات تدفع لهم زيادة على انهم كانوا يتمتعون بمكانة كبيرة بين النوبيين والأتراك على السواء ولو أن الكلمة الأخيرة كانت للحكام العثمانيين فى كل الأمور .. ولم يزل أحفاد هؤلاء القضاة يحملون لفظ (القاضى) فى اسمائهم فى بعض أنحاء حلفا والدر وادندان ، وغيرها من مناطق النوبة .

الأتراك والضرائب :

عندما كنا صغاراً ، كان اجدادنا يروون لنا الكثير من قصص العهد التركى وكانوا يذكرون بمرارة فداحة الضرائب فى ذلك العهد والطرق التعسفية لجمعها ، وقد أكدّ ذلك البروفسور مكى شبيكة فى كتابه (السودان عبر القرون ص ٩٨) .

« اثناء غياب اسماعيل فى غزوته لجبال الصعيد اتفق محمد فؤاد سعيد وكيله والمباشر (حنا الطويل) على فرض الضرائب فسجلوا القرى ووضعوا ضرائب باهظة لم يألفها الناس من قبل ، فقد

رؤى أن يدفع صاحب الحمار خمسة ريالات وكذلك صاحب الشاه . وما كان لوكيل مثل محمد افندى سعيد يريد أن يرتفع فى عين رئيسه ، أو المباشر كحنا الطويل أن يفعلا غير ذلك ، وربما كانا يقيسان الحالة بمصر وهما يجهلان مبادئ الاقتصاد ويجهلان أن السلع تختلف قيمتها باختلاف البلاد . وهذه المقارنة قادتهما الى ارتكاب ذلك الخطأ الفاضح – فأهل السودان آنذاك أغلبيتهم تتعامل بالذرة والدمور كنقد ، والريالات المتداولة بين الناس قليلة والسودانى الذى يريد أن يقوم بتأدية هذه الضريبة الباهظة قد يعوزه السوق الذى يبيع فيه ماشيته . أزاء ذلك الموقف الشاذ الذى لم يألفه السكان من قبل ، فر فريق منهم ملتجئا بالحبشة وفريق آخر بدأ يفكر فى الثورة والانقضاض على الحكومة الجديدة » .

وعلى ص ١١٩ من الكتاب نفسه يقول بروفسور شبيكة :

« وهناك ظاهرة أبدتها لنا الأرقام بدأت منذ الفتح وهى هجرة سكان الشمال وخاصة دنقلا وفرارهم الى كردفان أو أقليم سنار هرباً من الضرائب الباهظة فقد ادعى أحد مديرى دنقلا السابقين فى عام ١٢٥٦ هـ أن زمام المديرية كان ٤٩٠٠ ساقية ، خربت منها ٥٥١ ساقية خراباً كاملاً ، وفرّ رجال ألفين واحد عشرة ساقية وبقى فى بعضها رجل واحد وثور واحد وفى البعض الآخر رجلان وثوران .. » هذه الكلمات التى عبر بها البروفسور شبيكة تعبيرا واضحا عن حالة الأهالى والضرائب أثناء الحكم التركى فى بلاد النوبة ، كنا نسمعها من كل الذين عاشوا فى ذلك العهد وقد حفظوا بعض الكلمات التى كان يتفوه بها بعض المسئولين عن جمع الضرائب مثل (خرسيس أدبسيس) وغير ذلك من الالفاظ التى وجدت طريقها الى العربية العامية فى بعض جهات السودان .

وقد وصف الرحالة بورخارد الذى زار بلاد النوبة فى القرن التاسع عشر أن المنطقة الواقعة بين أسوان ووادى حلفا كانت مثاراً للفوضى ومرتعا لتجارة الرقيق ، مما لم يستطع معه الحكام الكشاف على اقرار الامن والنظام . ومن يدرى فربما كانوا أنفسهم سبباً مباشراً من أسباب تلك الفوضى والقلاقل .

وعند وقوع حادث مذبحة القلعة فى عهد محمد على والى مصر ، هرب عدد كبير من المماليك الى الجنوب ووصلوا حتى دنقلا واستقر كثيرون منهم فى بلاد النوبة ، وكما ذكر بورخارد أن هؤلاء المماليك كانوا من العوامل المباشرة والمؤدية لقيام الاضطرابات التى اجتاحت بلاد النوبة السفلى ، إذ قطعوا طرق التجارة وظلوا ينهبون المتاجر يعيثون فى تلك البقعة فساداً .

فى تلك الفترة جاء الاتراك العثمانيون الى بلاد النوبة وهم ينتمون إلى عناصر وقوميات متباينة ،

بعضهم نزح من جنوب شرق اوربا (اى دول البلقان) وشرق اوربا واستقر بعضهم فى كثير من القرى والجزر النيلية .. ولا زالت بعض هذه الأماكن تحمل اسماءهم مثل (جزيرة المحراب) ، وقبيلة البشنق من بوسنيا والدبى (ربما دبروجه) . ولا زال بعض الناس يحملون اسماء لها صلة بالأتراك العثمانيين مثل اغا وكاشف وكارا .

ويتضح مما كتبه بورخارد والرحالة الآخرون عن الكشاف أنهم كانوا يجمعون الضرائب بطرق تعسفية فيها كثير من الارهاب . وجاءت النتيجة تفشى الفقر فى البلاد . كما أن عدداً غير قليل من المزارعين فى بلاد النوبة ولاسيما اقليم دنقلا - فروا هربا من الضرائب الباهظة الى كردفان واقليم سنار وغيرهما ، ويقول بروفسور شبيكة :

« ولت هذه الجماعة الى حدود اثيوبيا خوفاً من فداحة الضرائب وطرق جمعها » خاصة وبلاد النوبة فى ذلك الوقت كانت تصدر البلح الى مصر وتستورد منها الحبوب والاقمشة والمصنوعات » ، كما نجد ان وادى حلفا كانت تمثل نقطة تجارية هامة زيادة على أهميتها العسكرية .

قيام وادى حلفا وازدهارها وغرقها

عندما تم لمحمد على غزو السودان عام ١٨٢١م ، كانت حلفا تمثل نقطة تجمع لجيوشه ، ومنها قاموا بعملية نسف الصخور عند الشلال الثانى حتى لاتعترض سير المراكب عند الشلال ، ثم انشأوا شونة للغلال والذخائر فوق الشلال .... وعليه ظلت حلفا مركزاً عسكرياً حتى أوائل القرن العشرين ، ومما ساعد على ذلك موقعها قرب الشلال الثانى فى نقطة هى آخر ما يمكن ان تصل اليه المواصلات النهرية من الشلال الأول فى مصر. ثم نجد أن وجود المنشئات التجارية والعسكرية فى حلفا جعلها أيضاً المركز الادارى لبلاد النوبة السودانية ، وهى المكانة التى كانت تتمتع بها حتى القرن العشرين وقبيل قيام السد العالى .

وعلى امتداد القرن التاسع عشر ، لم يرد ذكر حلفا أو بلاد النوبة لزمن طويل ، الا عند اندلاع الثورة المهدية .... فبعد وفاة الامام المهدى ، خلفه الخليفة عبدالله التعايشى الذى اتخذ سياسة خارجية قائمة على نشر الدعوة المهدية ، فكتب خطابات عديدة الى حكام مصر من الاتراك ، كما أرسل انذاراً الى الخديوى توفيق والى السلطان عبد الحميد (سلطان الدولة العثمانية) . ولم يكتف الخليفة بارسال خطاباته وانذاراته بل أعد حملة تحت قيادة الأمير عبدالرحمن النجومى لغزو مصر.

وفى دنقلا أعد النجومى العدة وجهز السلاح والرجال الذين تحركوا فى ٣ مايو ١٨٨٩م وكان الجيش مكونا من ٤٠٠٠ مقاتل وبرفقتهم ٧٠٠٠ من النساء والاولاد . ولكن رغم الاعداد الكبيرة والتجهيزات التى رافقتها ، واجهت الزحف أزمة المؤن ومواد الغذاء ، ويرجع سبب ذلك الى أن الحملة قد سارت على البر الغربى من النيل . حيث الأراضى مقفرة وصحراوية تكاد تخلو من الغذاء والنبات ، وتقع معظم مناطق العمران والاراضى الزراعية على الضفة الشرقية من النيل) . أضف الى ذلك أن الكلونيل وود هاوس [1] كان يقيم فى وادى حلفا على رأس جيش مصرى وانجليزى ومحلى ، وكانت جواسيسه تتابع مسيرة النجومى . وأخيراً أصدر وود هاوس أوامره الى السكان بالضفة الغربية باخلاء القرى من أنفسهم وغذائهم ومتاعهم وامرهم بقطع التمر الاخضر من النخيل ، حتى لا يبقى للأنصار شئ من غذاء أو مؤن . وفى النهاية نقل وود هاوس جيشه الى أرقين بالبر الغربى حيث احتلوا بعض بيوتها فى اللحظة التى كان فيها جيش النجومى يتجه صوبها وكل فرد من أفراده يفكر فى ارتياد النهر حتى يأخذوا كفايتهم من الماء ... ولكن كيف يتم ذلك دون الاشتباك مع جنود وود هاوس الرابضة عنده .

١ - كانت مصر تخضع للاحتلال الانجليزى منذ عام ١٨٨٢م .

ولكن ولما يجدوا بداً من ذلك نزلوا النهر فأشتبكوا مع جنود وود هاوس وفقدوا عدداً كبيراً من الأنصار... ويقول بروفسور شبيكة : (أنهم فقدوا مايقرب من الألف مجاهد ، ورغم ذلك صمم الامير النجومى على متابعة الحملة مهما كلفه ... وقال وهو يهز سيفه « والله لا أرجعن الى الوراء الا محمولاً على الأكتاف ، فاذا عطشنا أو جعنا فأنما نحن فى جهاد فلنتذرع بالصبر والثبات حتى نفوز بالنصر أو الشهادة » قال ذلك وهو يهز سيفه فوق رأسه وتابعه امراؤه وهم فى نشوة حماسهم ، وهزوا سيوفهم ثم تبعوه مؤمنين) .

ولما لم يمض وقت طويل ضاق بهم الحال ، فوجد ود النجومى نفسه أمام ضرورة ملحة لكتابة رسالة الى الخليفة جاء فيها :

« سيدى وملاذى ، بعد مزيد من السلام ، نرفع الى مكارمكم عن أحوالنا وأحوال الأنصار الذين معنا ، أنه قد مسهم الضرر الشديد ، واشتد بهم الحال ، وضاق الأمر جداً ، فان الجوع اضناهم وأذهب قواهم فورم أجسامهم وغير احوالهم لأنهم قبل دخول بلد العدو ، كان قوتهم التمر الأخضر المر ونواه ، وانقطع عنهم من مدة ... والطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا البلد على حالة ضعيفة ، ولشدة الضرر جلسوا جميعهم على الأرض وكثيرون منهم ماتوا جوعاً . وأما ضعفاء اليقين منهم فلعدم صبرهم على البأساء والضراء رغبوا فى الأعداء ، والجهادية والعبيد والخدم لحقوا ايضاً بالاعداء وارتدوا عن الدين ولم يبق منهم الا النادر ، ثم ان الجهادية الذين ارسلوا معنا طوبجية للمدافع من طرف سيدى يونس ود الدكيم (حاكم دنقلا) كانوا خمسة وثلاثين ، الجميع رغبوا فى الكفرة وهربوا اليهم ولم يبق معنا الا ثلاثة أما أهل الريف (النوبيون) من معتوقة الى بلّانة التى وصلنا اليها ، فكلهم قاموا فى عون الكفرة وحزبوهم كل التحزب . ومن عهد دخولنا ديارهم الى الآن لم يأتينا منهم وارد ولا معرج ولا راغب فى الدين ولا من يريد تجارة بل الجميع حملوا الاسلحة النارية وحاربونا أشد المحاربة . أما بوابير الكفرة فما زالت سائرة معنا بالبحر تبيت حيث بتنا وتقيل حيث قيلنا ، وعسكرهم ماشية بالشرق فى خيل وجمال لمنع الانصار ماء البحر ولم يكن شرب الماء الا بنضال ومضاربة واستشهاد وجراحات . وجزى الله الانصار خيراً وبارك فيهم فانهم مازالوا مطمئنين على حالهم ، وثابتين على محاربة عدوهم ، لا ينتظرون الا النصر والظفر بالأعداء أو الفوز بالشهادة.»

هذا وقد حشد قرانفيل سردار الجيش المصرى الجند فى أسوان وانتقل الى معسكر وود هاوس فى حلفا ، ثم جرت بينه وبين الأمير النجومى مخاطبات طلب فيها من الأمير التسليم واتقاء الموت والأسر ، ورد النجومى بأنه يجاهد فى سبيل الله حتى ينصره أو يفوز بالشهادة ، حتى وقعت معركة توشكى فى

أغسطس عام ١٨٨٩م حيث وقعت هزيمة الأنصار ، وما كان لهم أن يحرزوا نصراً وهم بهذه الحالة من التعب والجوع والأرق والأرهاق والتى وصفهم بها الأمير النجومى فى كتابه الى الخليفة . ولكنهم كما قال بروفسور شبيكة « لم يرضوا الا النصر أو الفوز بالشهادة ، وقد فازوا بالثانية » . وكانت تلك بداية النهاية ، حيث بدأ الجيش المصرى يتخذ خطوات الهجوم بدلاً عن الدفاع ، وعليه تحركت جيوش كتشنر لاحتلال السودان عام ١٨٩٦م .

تدل تلك الحوادث على أن النوبة الشمالية لم تخضع لحكم الأنصار بل ظلت تحت الحكم التركى المصرى حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وعليه أصبحت مدينة حلفا كما ذكر سابقاً ، مركزا عسكرياً هاماً منذ عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥م ، حيث تمثلت كنقطة انطلاق للحملة التى ارسلت لانقاذ غردون ، ولكن بالرغم من فشل الحملة ، ظلت المدينة - كما هى - نقطة حدود حصينة لحماية مصر من غزو الأنصار ، خاصة وقد أشرنا لذلك عند استقرار الكولونيل وود هاوس فيها ، وأيضا عندما زحفت جيوش الأنصار بالبر الغربى لغزو مصر تحت قيادة الأمير ود النجومى .

وهكذا بدأت مدينة حلفا تحتل مركزها العسكرى والادارى فى بلاد النوبة فأزداد عدد سكانها بعد أن هرب اليها سكان القرى المجاورة فارين من جيوش ود النجومى ، تلك الجيوش التى كانت تهاجم القرى بحثاً عن الطعام والمؤن وأيضا لبث الدعوة المهدية . وبزيادة عدد السكان فى حلفا ادخلت بعض الخدمات الأجتماعية حيث أنشئ فيها مستشفى ومكتب للبريد والبرق ومدرسة ابتدائية كانت الأولى من نوعها فى السودان ، ومسجد كبير كان يؤمه المصلون سمى بمسجد التوفيقية ، وكانت المدينة بما فيها السوق والمبانى العامة تسمى بالتوفيقية[١] .

كل تلك الأسباب متداخلة جعلت من مدينة حلفا مركزاً لادارة شئون النوبة ، فاتخذت شكلا بالمعنى المعروف قبل قيام السد العالى . وقد وصفها عدد من الكتاب فى أواخر القرن التاسع عشر منهم المستر ونستون تشرشل ، فى كتابه « حرب النهر » قائلا : « أن المدينة (أى وادى حلفا) والمعسكر محصورة بين الصحراء والنهر ، ويبلغ طولها من الشمال للجنوب حوالى ثلاثة أميال ولا يزيد عرضها عن ٤٠٠ ياردة ، ثم أن جميع المبانى من مساكن ومكاتب وثكنات مبنية من الطين وبعضها من طابقين ولكن فى شمال المدينة تبدو المنازل أكثر جمالا وهى جاثية على شاطئ النهر[٢] . وقد اصبحت مدينة حلفا نقطة لامتداد الخط الحديدى عبر الصحراء الى الخرطوم ، وجذبت اليها أعمال السكة الحديد ، والخدمات المتصلة مع عدد كبير من العاملين . ونسبة لارتفاع أعداد السكان مجيها فقد ازدادت أهمية السوق وانتعشت التجارة » .

١ - ظل هذا الأسم (حلفا التوفيقية) قائما حتى تم غرقها عام ١٩٦٥م .

٢ - ربما كانت هذه المبانى هى التى كانت باقية حتى آخر أيام من عمر حلفا ، بين مسجد التوفيقية ومحطة السكة الحديد .

ارتبط الخط الحديدى بحملة كتشنر ، خاصة . وهو الذى كان فى بادئ الأمر جزءاً من التنظيم الحربى ، ثم أصبح فيما بعد خطاً تجاريا لنقل البضائع والركاب . وعند منطقة القيقر التى يعرفها أهل حلفا جيداً كان يدور محور النشاط ، حيث الثكنات الحربية ومحطة السكة الحديد ومنشآتها ومسجد سمى المسجد الاسماعيلى ، ثم مرسى البواخر واحواضها ، وكانت آثار كل ذلك باقية حتى غمرت المياه المدينة . وقد أنشئ فى حلفا وقبل قيام الحرب العالمية الثانية مطار هام (عالمى بالمعنى الصحيح) فكانت تهبط به طائرات شركة الأمبيريال البريطانية التى كانت تربط بريطانيا بمستعمراتها فى شرق ووسط وجنوب افريقيا . وكانت هناك طائرات برية ومائية ، كذلك شركة الألاليتوريا الايطالية للطائرات التى كانت تربط ايطاليا بامبراطوريتها فى شرق افريقيا بعد حربها الاثيوبية . وقد كان المطار فى بادئ الأمر يقع شرق مقبرة السيد ابراهيم بالقرب من المدينة والسوق ، ولكن نسبة لازدياد الحركة بها اضطر المسئولون لنقله الى مكان بعيدو فسيح على بعد ١٢ ميلاً جنوب حلفا ، وقد رصف طريقه بالإسفلت لكى يسهل ربطه بالمدينة[٢] .

وقد ازداد النشاط فى مدينة حلفا اثناء الحرب العالمية الثانية ، حيث الجنود والمؤن كانت ترسل عن طريقها الى شمال افريقيا بالخط الحديدى ، وعربات النقل والبواخر النيلية وقد ازداد عدد القطارات التى كانت تصل حلفا فاضطر المسئولون لانشاء محطة اخرى للسكة الحرير قرب القيقر سمى بمحطة عنقش وأخرى عند الكرنتينة (شمال المدينة) ... وافتتح طريق جديد يبدأ من غرب حلفا عن طريق واحة سليمة عبر الصحراء الى واحة كفرة كانت تسير عليها عربات النقل تحمل المؤن الى القوات المحاربة فى شمال افريقيا فى الحرب العالمية الثانية ، ثم حدث اثناء الحرب العالمية الثانية أن ازداد عدد السكان فنشطت بالتالى الحركة العامة بوجود الجند الهنود وجنود شرق وأواسط افريقيا مع الجنود البريطانيين ... غير أن هذه الحركة قد اختفت بنهاية الحرب وظلت المدينة تغط فى هدوءحتى مطلع الستينات ، حيث تنفست الحياة فيها ثانية فازدحمت الطرقات ببدء اليونسكو حملتها لانقاذ آثار النوبة قبل قيام السد العالى ، حيث زار مدينة حلفا عدد كبير من علماء الآثار والسواح وطلاب المدارس والجامعات ، رغبة منهم فى زيارة اثار النوبة قبل أن تغمرها المياه .

وأصبح بالتالى فندق النيل الذى ظل هادئا لفترة طويلة يعج بزواره وامتدت القاطرات على طول الخطوط الحديدية غادية ورائحة ، ثم هناك صفير البواخر يعلو ، وهى تمخر عباب المياه تنذر النوبيين ببداية موسم الرحيل باللاعودة إلى ديار راحلة . فتلك رحلة غير الرحلات التى اعتادها الرجال والتى تظل النساء فى اثنائها يتوقعن العودة بخير وفير من أقاصى الأرض .

٢ – ويعتبر المطار آخر نقطة وصلت اليها مياه بحيرة النوبة وقامت عنده مدينة وادى حلفا التى رغب بعض سكان حلفا أن يقطنوا فيها ، اما غالبيتهم ففضلوا الهجرة الى حلفا الجديدة والمناطق الأخرى بالسودان وسيأتى ذكر ذلك فى مكان آخر .

هكذا ظلت مدينة وادى حلفا تحتل مكانتها فى بلاد النوبة السودانية فهى أكبر مدنها الادارية والتجارية داخل حدود السودان ، ولم تضارعها فى ارض النوبة السفلى غير أسوان فى مصر ... وظلت هكذا حتى قيام السد العالى حيث اختفت المدينة وضواحيها تحت مياه البحيرة الجديدة ... ثم ظهر اسمها ثانية على السطح فى المشروع المسمى (بحلفا الجديدة) . وظلت وادى حلفا فى الطرف الجنوبى لبحيرة النوبه حيث اختار بضع الآف من الأهالى أن يبقوا فى هذا الموطن ، لاحياء اسم تلك المدينة التى تعلقوا بها قرونا عديدة ، وقد أقاموا فيها مساكنهم وسوقا جديدة ومدارس ومحطة للسكة الحديد ومرسى لبواخر النيل التى تربطها بالسد العالى فى مصر ، كما تربطها أيضا القطارات بالخرطوم ، وينتظر أن تواصل المدينة نموها وتستعيد أهميتها اذا مانفذت المشروعات التى ترمى الى ربط جمهورية السودان وجمهورية مصر العربية بوسائل المواصلات البرية والنهرية حسب توقعات (البلدين الشقيقين) .



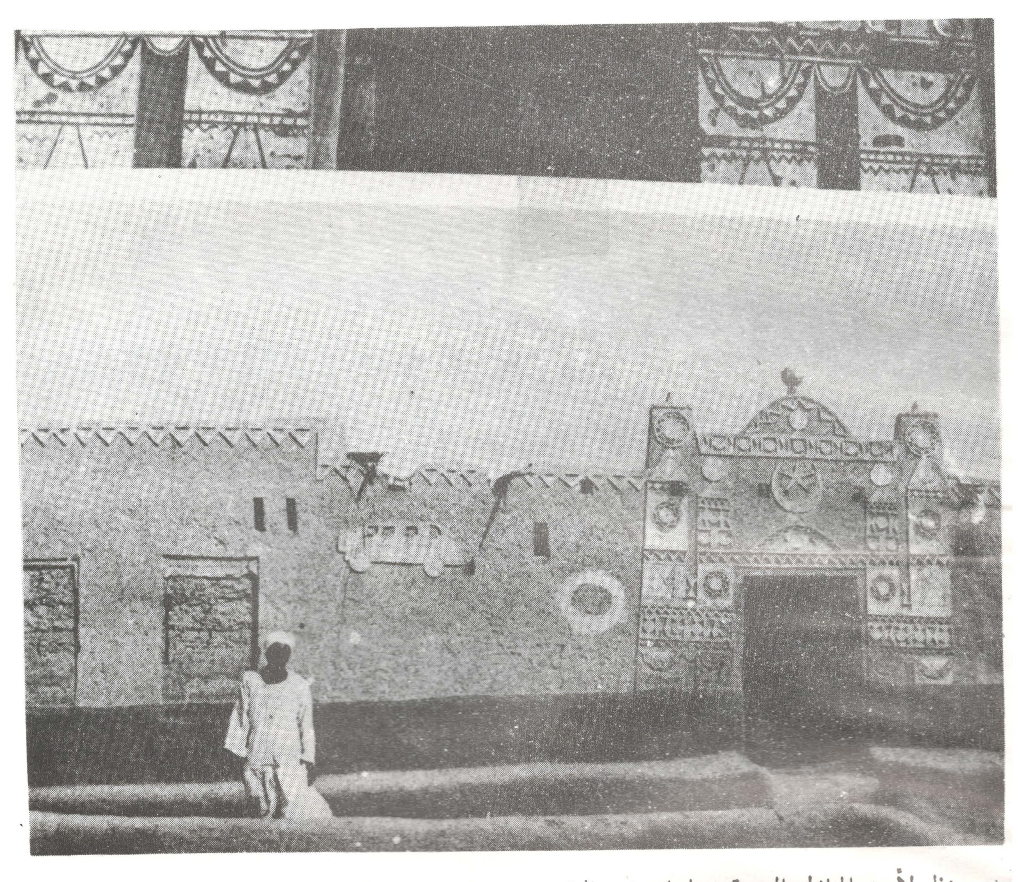
الشارع الرئيسي بين القيقر والسوق بوادى حلفا قبل الغرق ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



احدى السواقي وهى اقدم وسائل الرى في أرض النوبة ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



بعض نخيل منطقة النوبة وهي مغمورة بمياه السد العالى ..



منظر لأحد المنازل النوبية وعليها بعض النقوش على المدخل والجدار الخارجى كما يلاحظ على المدخل الأطباق التي اعتاد النوبيون أن يزينوا بها واجهات بيوتهم « تصوير وزارة الثقافة والاعلام - الخرطوم » ..



مدخل احد بيوت النوبيين وعليه النقوش التي كانت تحليه قبل قيام السد العالى- نوع من الفن النوبي ..

« تصوير وزارة الثقافة والاعلام- الخرطوم » ..



منظر لإحدى الكناتين المتجولة في بلاد النوبة بالقرب من احدى السواقي النيلية ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم »



احدى احياء حلفا قبل غرقها ..
« وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



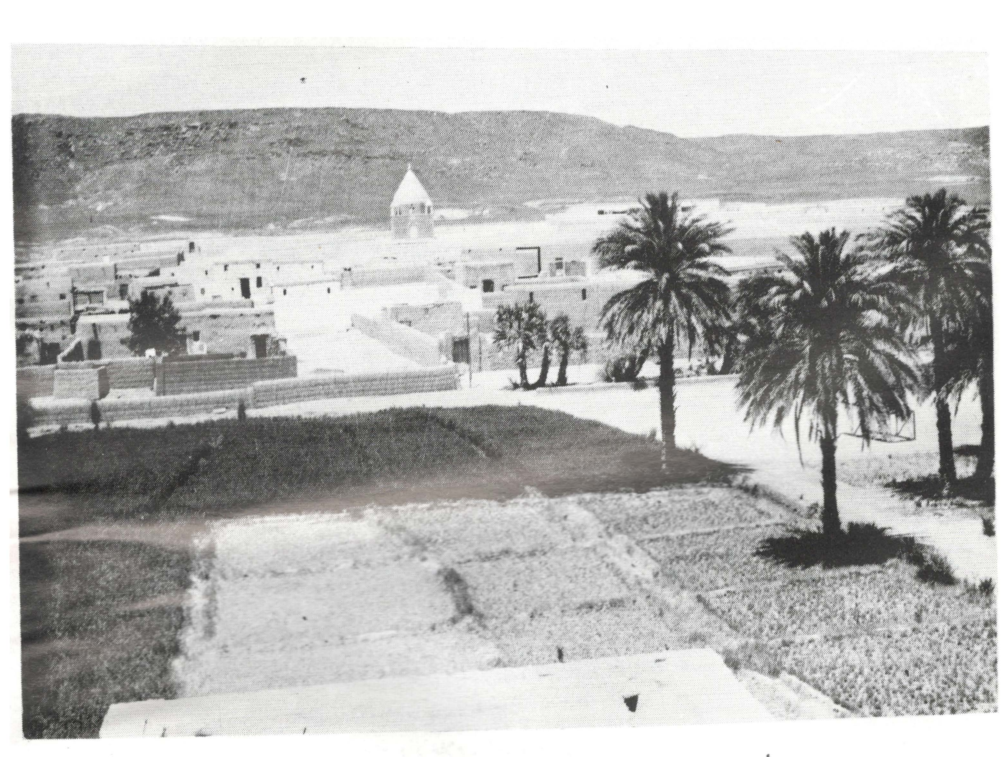
إحدى المزارع في بلاد النوبة قبل الغرق..
«تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم»..



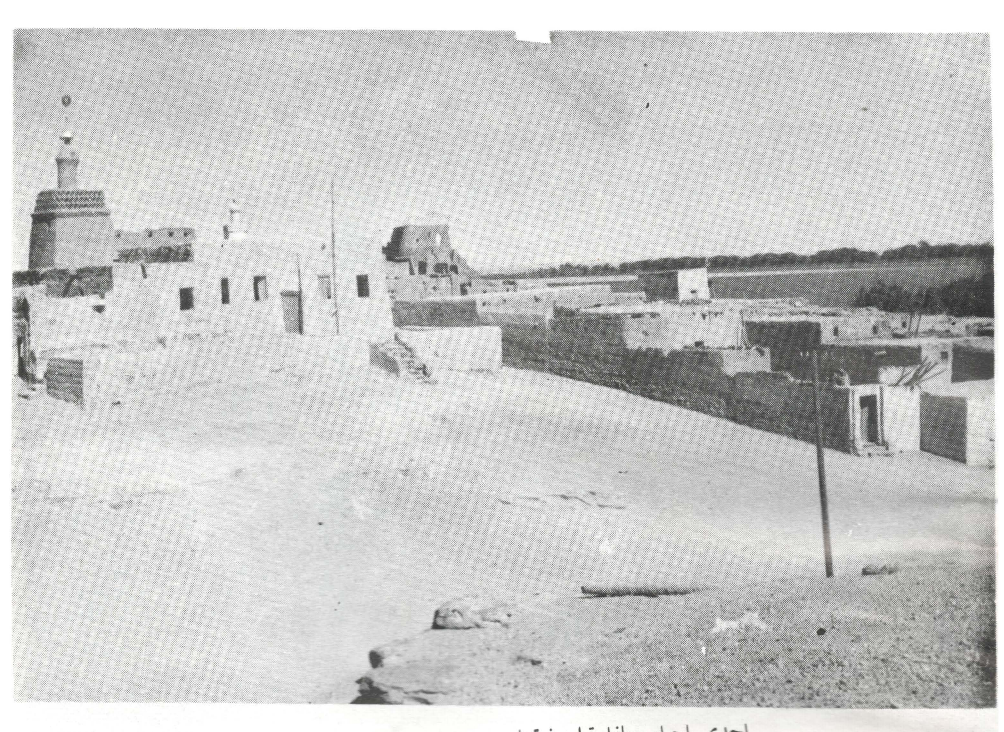
منظر لمحطة السكة الحديد بوادى حلفا ..



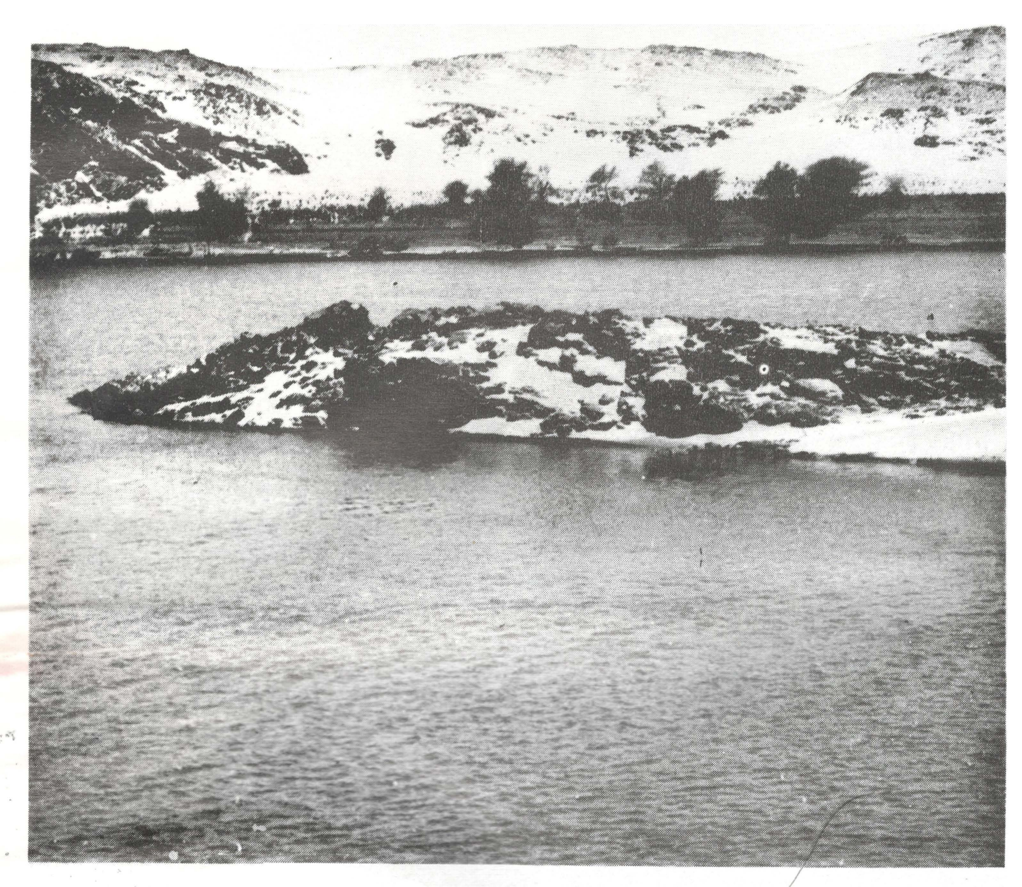
منظر لجزء من وادى حلفا على ضفاف النيل قبل الغرق ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



أحدى قرى النوبة قبل الغرق ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



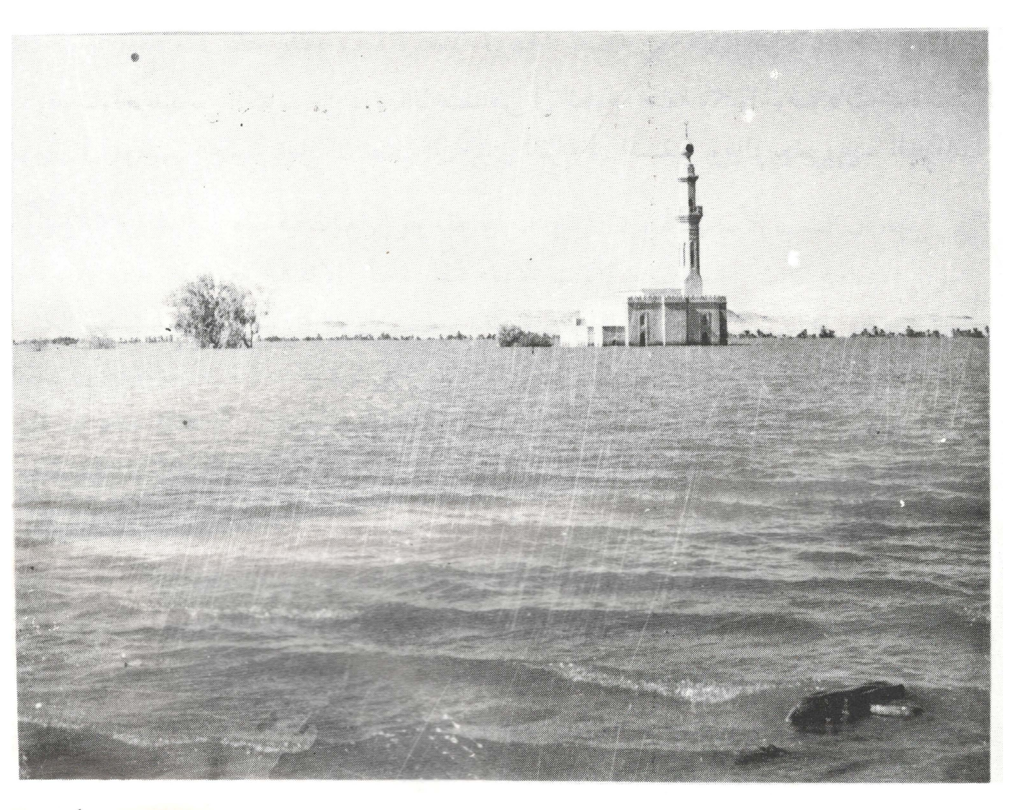
احدى احياء حلفا قبل غرقها ..
« وزارة الثقافة والاعلام - الخرطوم » ..



هذا النيل بالقرب من الشلال الثاني ويلاحظ بعض الصخور البلورية على الجزيرة الصغيرة ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



مدرسة دغيم الأولية بوادى حلفا ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



مسجد سيدنا الحسين بحلفا دغيم وهو غارق في مياه السد العالى .. بعد قليل لم يبق منه الآ أعلى المئذنة ..

قيام السد العالى وتهجير النوبيين

لايمكن للحديث عن النوبة أن يكتمل دون التعرض الى غرق أراضيها التى كانت تشمل منطقة النوبة السفلى بأكملها – تلك الاراضى التى كانت مسرحاً للحوادث التاريخية التى أشرنا اليها فى الصفحات السابقة ، أيضاً لايمكن أن يكتمل دون الاشارة الى تهجير السكان واعادة توطينهم فى مناطق جديدة بعيدة عن الموطن الاصلى . ولعل كل هذا سيدرس يوماً للأجيال القادمة كأكبر حدث فى تاريخهم الطويل ، ويعتبر التقرير الضافى* الذى وضعته لجنة توطين اهالى حلفا برئاسة السيد/علام حسن علام أهم مرجع عن الخطوات التى اتخذتها حكومة السودان لمقابلة هذا التحدى الكبير .

وقد تناوله عدد من الكتاب من ذوى الاختصاص فى العلوم المختلفة وكتبوا موضوعات عدة تتعلق بالنوبيين فى موطنهم الجديد يؤمل أن تصل الى أيدى القراء فى المستقبل وهاك بعض هذه المعلومات الموجزة .

* منذ ان فرغت من مسودة هذا الكتاب ظهر مؤلف المرحوم حسن دفع الله بعنوان (هجرة النوبيين) باللغة الانجليزية ويعتبر خير مادون فى هذا الصدد .

قيام السد العالى

لا شك أن قيام السد العالى كان يمثل أكبر حدث فى تاريخ النوبة الحديث ، ذلك لأن أرض النوبة السفلى من الشلال الاول حتى الثانى أختفت تحت مياه البحيرة الصناعية التى نشأت جنوب الخزان والتى تسمى بحيرة النوبه ، وترتب على ذلك تهجير السكان الى مناطق أخرى بعيدة عن تلك الأراضى التى كانت مسرحا لحوادث جاء ذكرها فى الصفحات السابقة .

فالنوبيون السودانيون تم تهجير إغلبهم الى منطقة حلفا الجديدة فى شرق السودان ، أما الذين كانوا يقيمون داخل الحدود المصرية فقد هاجروا الى منطقة كوم امبو فى (جمهورية مصر العربية) ثم بقى بضعة الآف اختاروا البقاء على الضفة الجنوبية للبحيرة قرب مطار حلفا ، واقاموا مدينة (وادى حلفا) من جديد .

اتفاقية مياه النيل :

نجد أن السبب الأساسى لهجرة النوبيين من المنطقة هو إبرام اتفاقية مياه النيل عام ١٩٥٩م ، وقبل ابرام الاتفاقية كانت الصحف ووكالات الانباء تنقل اخبار الاتفاقية مع توقع غرق بلاد النوبة ، والنتائج التى قد يترتب عليها تهجير السكان واعادة توطينهم فى مناطق أخرى لايعرفون عنها الكثير ، مما كان له وقع حزين على السكان ، فمنهم من يمزقه الاسى على ترك بلاده وآثاره وموتاه ونخيله ومنهم من كان يفزعهم خوف المجهول الذى قد يحل بالنوبيين دون ذنب جنوه ... ثم هناك عدد غير قليل من السكان لم يصدق أن مياه السد العالى ستقضى على نبض الحياة فى تلك البلاد الآمنة والتى عاشوا فيها الآف السنين . وقد عبر كثيرون من قبل فى الصحافة المحلية عن الخوف الذى انتابهم من تغيير كانوا يخشونه ويجهلونه . كما لم يخف الكثيرون استنكارهم خاصة فيما قد يحل بالأرض ، بالرغم من تقديرهم لأهمية قيام السد العالى لضمان حياة كريمة لمصر وسكانها الذين اخذت اعدادهم تتزايد بدرجة كبيرة حيث يتوقع أن يصل التعداد فيها الى أكثر من الخمسين مليون بعد بضع سنوات ، فكان لابد لمصر من مضاعفة انتاجها الزراعى بتخزين كميات كبيرة من المياه لرى مساحات أكبر من الأراضى الزراعية مع توليد الطاقة الكهربائية لتطوير الصناعة فى مصر الشقيقة ، ويؤمل أن ينجح الخزان فى تحقيق هذه الاهداف .

عندما أبرمت الاتفاقية وأصبح الجميع أمام الامر الواقع ، استسلموا لأقدارهم وتجلدوا بالصبر وتمسكوا بروح عالية وعقدوا العزم على مواجهة المستقبل بشجاعة وايمان ... وفى اليوم الثامن من نوفمبر

عام ١٩٥٩م ، تم عقد اتفاقية مياه النيل التى منحت مصر حق اقامة مشروع السد العالى عند اسوان ، على أن تتخذ حكومة السودان الاجراءات لترحيل سكان حلفا وغيرهم من السودانيين الذين يتوقع غرق أراضيهم بمياه السد العالى ، بحيث يتم نزوحهم منها نهائيا قبل يوليو سنة ١٩٦٣م ؛ علماً بأن مياه النيل ستشمل ١٧٠ كيلو متراً داخل حدود السودان ، ويعنى هذا أن نحواً من ٥٠,٠٠٠ من السكان ومساكنهم ومزارعهم وممتلكاتهم قد تتأثر بالمياه المخزونة ، وقد اتخذت حكومة السودان الخطوات لتهجير السكان وتوطينهم سنذكر بعضها بايجاز . وللوقوف على تفاصيل اكثر يمكن للقارئ أن يطلع على التقرير النهائى للجنة توطين أهالى حلفا وكذلك مؤلف المرحوم السيد/ حسن دفع الله « هجرة النوبيين » .

وفى ٦ ديسمبر ١٩٥٩م ، زار السيد/ رئيس المجلس العسكرى آنذاك الفريق ابراهيم عبود مدينة وادى حلفا ، والتقى بالمواطنين وذكرلهم أن الحكومة ستكون مسئولة بأن توفر لهم حياة كريمة وتعرضهم تعويضاً كاملاً ، ثم ذكر لهم بأن هناك لجنة ستشكل للنظر فى مستقبلهم .

وفى ٩ مارس من عام ١٩٦٠م ، اجازت حكومة السودان قراراً يقضى بقيام ادارة حكومية لتنفيذ هجرة وتوطين أهالى حلفا ، وتتكون هذه الادارة من الشخصيات الآتية :ـ

١ – السيد/ داؤد عبداللطيف رئيساً

وهو من اهالى المنطقة (حلفا دغيم) وهو من الاداريين المشهود لهم بالنشاط والكفاءة ودماثة الخلق بالاضافة لما يتمتع به من ذكاء متوقد واطلاع واسع .

٢ – السيد/وكيل وزارة الداخلية عضواً
٣ – السيد/وكيل وزارة المالية عضواً
٤ – السيد/وكيل وزارة الزراعة عضواً
٥ – السيد/وكيل وزارة الرى والقوة الكهربائية عضواً
٦ – السيد/ وكيل وزارة الاشغال عضواً

وكان من صلاحيات اللجنة الآتى :ـ

١ – تعويض وتهجير واعادة توطين سكان منطقة وادى حلفا التى سوف تتأثر بقيام السد العالى .
٢ – تسهيل وتنسيق مشروعات الاعاشة .
٣ – حصر ودراسة المشروعات الحكومية وتقديم توصيات بشأنها . على أنْ تكون اللجنة استشارية للسيد/ وزير الداخلية .

وقد عقدت لجنة التوطين اجتماعاً لمناقشة الاماكن المقترحة لتوطين سكان وادى حلفا وهى :

١ – وادى الخاوى (فى دنقلا)
٢ – شمال الخرطوم (منطقة الكدرو)
٣ – جنوب الخرطوم (امتداد الجزيرة والمناقل)
٤ – امتداد المناقل
٥ – ود الحداد
٦ – خشم القربة

وتناولت اللجنة فى مناقشاتها الجوانب المتعلقة بالتربة ومساحات الأراضى وطبيعة الارض والمناخ ، وبدأت الوزارات والمصالح الحكومية المعنية بالأمر فى جمع المعلومات الخاصة بالأماكن المقترحة وتعد الاحصائيات اللازمة حتى تتمكن من رفع هذه المعلومات للحكومة والى سكان حلفا لتحديد الموقع الأفضل واختيار الموطن الجديد .

وفى مارس سنة ١٩٦٠م ، زار السيد داؤد عبداللطيف رئيس لجنة التوطين مدينة وادى حلفا وعقد اجتماعاً شعبياً وتحدث اليهم فى خطاب تاريخى قال فيه :

« لقد تحدثت الى لجانكم المختلفة ، والى الاعيان والمسئولين بالمنطقة واننى لم أسمع سوى تقديركم للموقف واستعدادكم للتضحية وحبكم لوطنكم الكبير وعزمكم وتصميمكم على خلق مجتمع جديد متقدم ، وأؤكد لكم أن رغبتكم هذه سوف أحملها الى الحكومة » ... وأوضح لهم المعلومات الفنية التى تم التوصل اليها عدا فئات التعويضات التى لن يتم تحديدها الا بعد أن يتم اختيار الموقع الجديد ، والانتهاء من المسح الاحصائى وجمع المعلومات اللازمة .

ثم مضى السيد/داؤد قائلا : « أن الهجرة فى جميع العصور كانت بداية لعهد جديد منه تنطلق رياح التغيير والانتاج والتقدم . أمامكم الآن كمثال ، الولايات المتحدة ، فهى نتاج للمهاجرين . ثم أن أجدادنا النوبيين القدامى قد هاجروا الى هذا المكان من مناطق أخرى منذ الآف السنين مخلفين وراءهم آثارهم وحضارتهم ، وفى هذه المنطقة بنوا حضارة توجد آثارها فى بوهين وأبى سمبل وغيرهما من الأماكن ، وربما تكون هجرة النوبيين مرة أخرى داخل السودان فاتحة خير ، فاذا وقع اختياركم على شمال أو جنوب الخرطوم أو نهر عطبرة فانكم تعودون الى اوطان تركها اجدادكم منذ الآف

السنين . وان هجرتكم القديمة كانت لها بركتها ، فدعونا نأمل أن تكون هجرتكم الجديدة بداية لعهد زاهر لكم ولوطنكم الكبير » .

ثم حمل لهم السيد/ داؤد تصميم الحكومة على أن تخلق لهم موطنا نموذجيا جديداً ، كما أنها لن تبخل عليهم بامكانياتها ومواردها المالية لتحقيق هذا الهدف على أن يكون هذا المجتمع طليعة للتنمية الزراعية فى القطر كله .

وقد تم تكوين لجنة قومية للتوطين من ٢٢ عضواً ، ثمانية منها بالتعيين وروعى فى تكوينها أن تكون ممثلة لكل المناطق التى ستتأثر بمياه السد العالى ، وقد تكونت من الآتية اسماؤهم :

١ – السيد/ احمد شريف داؤد
٢ – السيد/ أبوراس أيوب
٣ – السيد/ الحاج توفيق أحمد يوسف
٤ – السيد/ حسن عثمان خليل
٥ – السيد/ خضر مرجان
٦ – السيد/ داؤد عبدالرحمن
٧ – السيد/ سيد جريس
٨ – السيد/ صالح عيسى عبده
٩ – السيد/ عبدالرحيم محمود
١٠ – السيد/ محمد أحمد شاهين
١١ – السيد/ عثمان ماهر
١٢ – السيد/ على أحمد على
١٣ – السيد/ محمد أحمد عوض
١٤ – السيد/ محمد حسن أمين
١٥ – السيد/ محمد داؤد
١٦ – السيد/ محمد صادق أوية
١٧ – السيد/ محمد عثمان عبدالرحمن
١٨ – السيد/ محمد عبدالماجد
١٩ السيد/ محمد على ابراهيم

٢٠ - السيد/ محمد محمد خير
٢١ - السيد/ محى الدين أحمد عيسى

وقد أعدت لجنة توطين اهالى حلفا بالتعاون مع الوزارات والمصالح الحكومية المختلفة المعلومات الفنية والاحصائيات اللازمة عن المناطق المقترحة وهى تشمل :

١ - الموقع الجغرافى
٢ - المناخ
٣ - صلاحية التربة
٤ - مساحة الأرض
٥ - طرق الرى فى كل منطقة
٦ - انواع المحاصيل الصالحة
٧ - تسويق جميع المنتجات
٨ - امكانية التصنيع وانواعه
٩ - نظام التخطيط
١٠ - المواصلات .
١١ - الاحوال الصحية فى كل منطقة
١٢ - امكانية الحصول على المرافق العامة
١٣ - العلاقات الاجتماعية مع الجيرة

اعلان الموطن الجديد ونتائجه

فى يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٦٠م ، وصل مدينة حلفا وفد وزارى بطائرة خاصة وعقد أجتماعاً عاماً لاهالى المنطقة ، تحدث فيه السيد/مقبول الأمين وزير الداخلية واشاد بتضحية الاهالى وشكر اللجان القومية والرسمية على المجهودات ، التى قامت بها وساعدت فى انارة الطريق وأظهرت تفهما تاما للموقف ومعاونتهم بالدرس والتمحيص . وقال السيد/ الوزير أنه بعد الدراسة المستفيضة وافقنا بحصر الاماكن المقترحة للاسكان فى المناطق الثلاث الآتية :

١ – وادى الخاوى (دنقلا)
٢ – جنوب أو شمال الخرطوم
٣ – خشم القربة .

وقال السيد الوزير أنه قد روعى فى اختيار هذه الاماكن تحقيق المطالب العامة بالقدر الممكن ، وبقدر ما تسمح به الأحوال الاقتصادية والمالية فى البلاد ، وهذه المطالب كانت كالآتى :

١ – تمليك الاراضى
٢ – اتساع الرقعة الزراعية
٣ – الرى المستديم
٤ – اقامة الصناعات
٥ – اقامة المساكن بمستوى مناسب .
٦ – خدمات اجتماعية بنفس المستوى
٧ – سهولة المواصلات
٨ – صيانة الأمن

وقد نوقشت هذه المطالب على ضوء الأماكن المقترحة للهجرة حتى يمكن التعرف على أنسب تلك المناطق الثلاثة ثم واصل السيد الوزير حديثه قائلا :

« ان الحكومة وهى ساهرة على مصلحتكم دائما بما يفيدكم ويفيد الأجيال القادمة من بعدكم ، فبعد دراسة كل الحقائق الواضحة قررت اختيار خشم القربة موطناً سعيداً لكم » .... ومضى قائلاً :

« ان مميزات خشم القربة هى أنها منطقة :

١ – جيدة التربة
٢ – ليست بها كثافة سكانية
٣ – سوف تروى رياً حديثا بالخزان
٤ – أراضيها واسعة بدرجة تبشر بمشتقبل زاهر للاجيال الحاضرة والقادمة .
٥ – امكانية توفير الوقاية الصحية والخدمات الأساسية الأخرى .
٦ – امكانية ربط القرية السكنية بشبكة من الطرق البرية وبخط حديدى الى خشم القربة » .

نتيجة اختيار خشم القربة :

وقبل أعلان الموطن الجديد ، كانت هناك معارضة شديدة ضد فكرة التهجير بوجه عام ، وظل فريق كبير يعارض فكرة خشم القربة ، ثم كانت اللجنة القومية تفضل جنوب الخرطوم ، لعله لم يدر بخلدها (أن فى هذه الحالة ربما يهاجر عدد كبير من السكان بعد أعوام قلائل الى العاصمة وينصهرون فى مجتمع المدن الثلاث بخيره وشره . وهكذا كان الحال فى معظم انحاء افريقيا ، اذ نجد أن العواصم والمدن الكبيرة اخذت تجذب اليها اعداداً كبيرة من سكان الاقاليم ولا سيما تلك المناطق المجاورة لها .

وعندما اشتدت المعارضة ، قامت مظاهرة كبيرة بحلفا والخرطوم ، اشتركت فيها النساء ووقف المتظاهرون ضد اختيار خشم القربة ! ونتيجة لذلك القى القبض على عدد كبير من المتظاهرين الذين اشتركوا فى المظاهرة كما أعفى بعض كبار موظفى الدولة من إبناء المنطقة ، الذين اشتركوا فى المظاهرة من مناصبهم ، من ضمنهم السيد محمد توفيق أحمد مدير مكتب شؤون العمل فى السودان . اما الحكومة فمضت فى تنفيذ خطة الهجرة والاسكان وفق قراراتها .

هذا وقد تم تعيين معتمد لرئاسة الهجرة بوادى حلفا كان المرحوم حسن دفع الله ، ثم معتمد يرأس قسم الاسكان بخشم القربة هو السيد/ عثمان حسين ، ومعتمد آخر للتعويضات هو السيد/ أحمد الطاهر ، وانتدب عدد من الموظفين والخبراء من الوزارات والمصالح المختلفة للعمل مع لجنة التوطين كل فى مجال اختصاصه مثل التعليم والرى والزراعة والصحة وغيرها . وقد قوبل مجهودهم هذا بالثناء والتقدير من لجنة التوطين التى جاء فى تقريرها هذه الجملة :

« ولانصاف جميع هؤلاء الذين عملوا مع لجنة التوطين ومن مختلف الوزارات والوحدات الحكومية يكفى القاء نظرة على تلك الأراضى الخضراء الوارفة الظلال الممتدة فى قلب الخواء بفيافى

البطانة لندرك أى جهد بذله هؤلاء الموظفون والعمال من ابناء السودان » .

فعند اعلان الحكومة عن اختيار خشم القربة موطناً جديداً عملت اللجنة على تنفيذ :

١ – القرارات المتعلقة بانشاء القرى السكنية بخشم القربة .

٢ – انشاء مؤسسات الخدمات الاساسية بالموطن الجديد . وقد تم بالفعل اجراء مسح احصائى بوادى حلفا يتعلق بالسكان وممتلكاتهم ، لوضع خطة للتهجير .

كذلك تعاقدت الحكومة مع الشركات المختلفة العالمية منها والمحلية بشأن الاستشارات الفنية لمشروع الاسكان ثم طلبت من رجال الاعمال والمقاولين وضع تصميم المنازل وتخطيط القرى السكنية لمدينة حلفا الجديدة . ثم اعدت المواصفات والمناقصات على نطاق عالمى ، وفازت شركة تيرف البريطانية وشركة بلغارية واخرى المانية ورابعة بولندية . الا أن شركة تيرف الفائزة بالعطاء انسحبت من العمل فيما بعد لخلاف بينها وبين الحكومة ، فاسند العمل الى مقاولين سودانيين .

الهجرة والاستعداد لها :

كما ذكرنا آنفا ، اتخذت اجراءات عدة للهجرة بوادى حلفا منها المسح الاحصائى الذى قامت به مصلحة الاحصاء وشملت دراسات اقتصادية واجتماعية هدفها :

١ – تعويض الأهالى عن ممتلكاتهم

٢ – انشاء الموطن الجديد فى منطقة خشم القربة على ضوء الاحصاءات والدراسات .

ونجد من أهم ما جاء فى الاحصاء ، هو تعداد السكان الذين بلغوا ٥٣,٢٧٤ من بينهم ١٧,٤٥١ ذكور و٢١,٠٢٧ من الاناث . وقد وضح أن المنطقة لم تكن ذات كثافة سكانيه كبيرة ، كما أن عدد الاناث كان يفوق عدد الرجال ، لأن عدداً كبيراً من الرجال كانو يرحلون الى العاصمة والمدن الكبيرة ، والبعض منهم كان يهاجر للعمل فى (جمهورية مصر العربية) . لذلك نجد أن عدد الغائبين من بين السكان حسب الاحصاء كان ١٤,٧٩٦ (اى حوالى ربع المجموع الكلى لسكان المنطقة)٩.

وكذلك أجريت احصاءات للمنازل وأراضى الزراعة والنخيل والجنائن . وحسب قرار التعويض فأن كل من يملك منزلاً فى حلفا يعطى منزلاً فى منطقة الاسكان ، اذا ما وافق على الرحيل الى منطقة خشم القربة .

أما عن الأراضى الملك الزراعية فيجوز أن يعوض الفدان فى حلفا بفدانين فى منطقة الاسكان بخشم القربة ، ومن أراضى الملك . وقد قسمت أراضى المشروع الزراعى الى حواشات مساحة كل منها ١٥ فداناً ووزعت على السكان المهاجرين بواقع حواشة واحدة لكل اسرة ، ومن كانت له الرغبة كان يدفع تعويضاً نقدياً عن منزله ، وبذلك كان الناس ينقسمون الى فريقين : فريق ارتضى بالتجهير الى منطقة خشم القربة ، أى ارتضـوا بالتعويض العينى . وفريق آخر اختار التعويض النقدى أذ لم يوافق على التهجير. هذا وقد قامت خلافات حادة بين الفريقين ، النقديين من جانب والعينيين من الجانب الآخر. واشتدت الخلافات حتى انقلبت الى عداوات شخصية ، فتصدعت علاقاتهم الاجتماعية فأحجموا حتى عن تبادل الزيارات العادية ، غير أن الايام قد اذابت الجليد فأزالت الجفوة المفتعلة بينهم وعادت المياه الى مجاريها ، وظلوا يتبادلون الزيارات فى جميع المناسبات رغم بعد المسافة وصعوبة المواصلات بين الموطن الجديد والقديم .

وقام المسئولون أيضاً فى وزارة الصحة بمسح صحى شامل كان الهدف منه تحديد انواع الأمراض والميكروبات فى المنطقة واستئصالها قبل الرحيل الى الموطن الجديد . ثم اجرى مسح صحى مماثل فى منطقة خشم القربة بمساعدة هيئة الصحة العالمية خاصة بالنسبة لمكافحة الملاريا كما تمت معالجة سكان منطقة البطانة من الامراض المستوطنة .

أما عن الدراسات النفسية فقد أعد الدكتور طه بعشر كبير اخصائى الأمراض العصبية والنفسية تقريراً ضافياً شاملاً للنواحى النفسية لسكان وادى حلفا ، وعليه فقد أعلن الدكتور بعشر أرتباط النوبيين الوثيق بموطنهم وتعلقهم بأرض النيل وكذلك جاء فى توصيته بأهمية الاسراع فى أختيار موطنهم الجديد لوضع حد لمخاوف المواطنين وقلقهم النفسى ثم أوصى بمعالجة هذا الموضوع بتفهم وعناية .

كما أجرى الدكتور محمد خير عثمان دراسة أوضح فيها تعلق النوبيين بأرضهم ونيلهم وأوصى بألا يكون الجانب الاقتصادى هو العامل الوحيد فى اختيار الموطن الجديد ، بل يجب اعطاء اعتبار كاف للعوامل الأخرى . وأوضح فى تقريره أن اختيار موقع آخر على النيل سوف يقدم الحل المثالى لمشكلة التهجير ، اذ أن هؤلاء المواطنين يزاولون حياتهم بنفس الطريقة التى مارسوها به قبل مئات السنين .

ويجئ التقرير مؤكداً لأراء الدكتور بعشر والدكتور محمد خير عثمان ، حيث نجد أن فناً شعبياً حزيناً قد نشأ أبان الهجرة وكان موضوعه النيل بعد أن تملكهم الأسى على فراقه ، ثم كان رثاء للقرى النوبية التى ابتلعها الماء ، منها (مرثية دبروسة) والتى كانت تغنى على مسرح حلفا الجديدة مباشرة بعد انتهاء

الهجرة ، وكانت (دبروسة) فى هذه الاغنية تمثل النيل والقرى النوبية والذكريات الجميلة والماضى الحضارى العريق . ونضيف أن الفنان العبقرى حمزة علاء الدين وهو من أهالى تشكى ، احدى المناطق التى تم غرقها بمنطقة النوبة المصرية نجده قد ساهم فى هذا الفن بتقديم أغنية عن السد العالى وغرق بلاد النوبة والهجرة ، وحث فيها أهله بالعمل يداً واحدة لمواجهة المستقبل بشجاعة وايمان . وقد سجلت اغانيه فى اسطوانات بالولايات المتحدة ، تسمع فى جميع أنحاء العالم تقريباً . وقد شملت الحفلات التى أحياها عن النوبة والهجرة أغانى والحاناً موسيقية حديثة من تأليفه الشخصى . هذا ما كان بشأن الاستعدادات فى وادى حلفا زيادة على الاجراءات التى اتخذت فى منطقة الاسكان . أما عن منطقة الأسكان فى خشم القربة فكانت هنالك ايضاً استعدادات كبيرة وأجراءات مماثلة من أهمها :

تسوية الأراض :

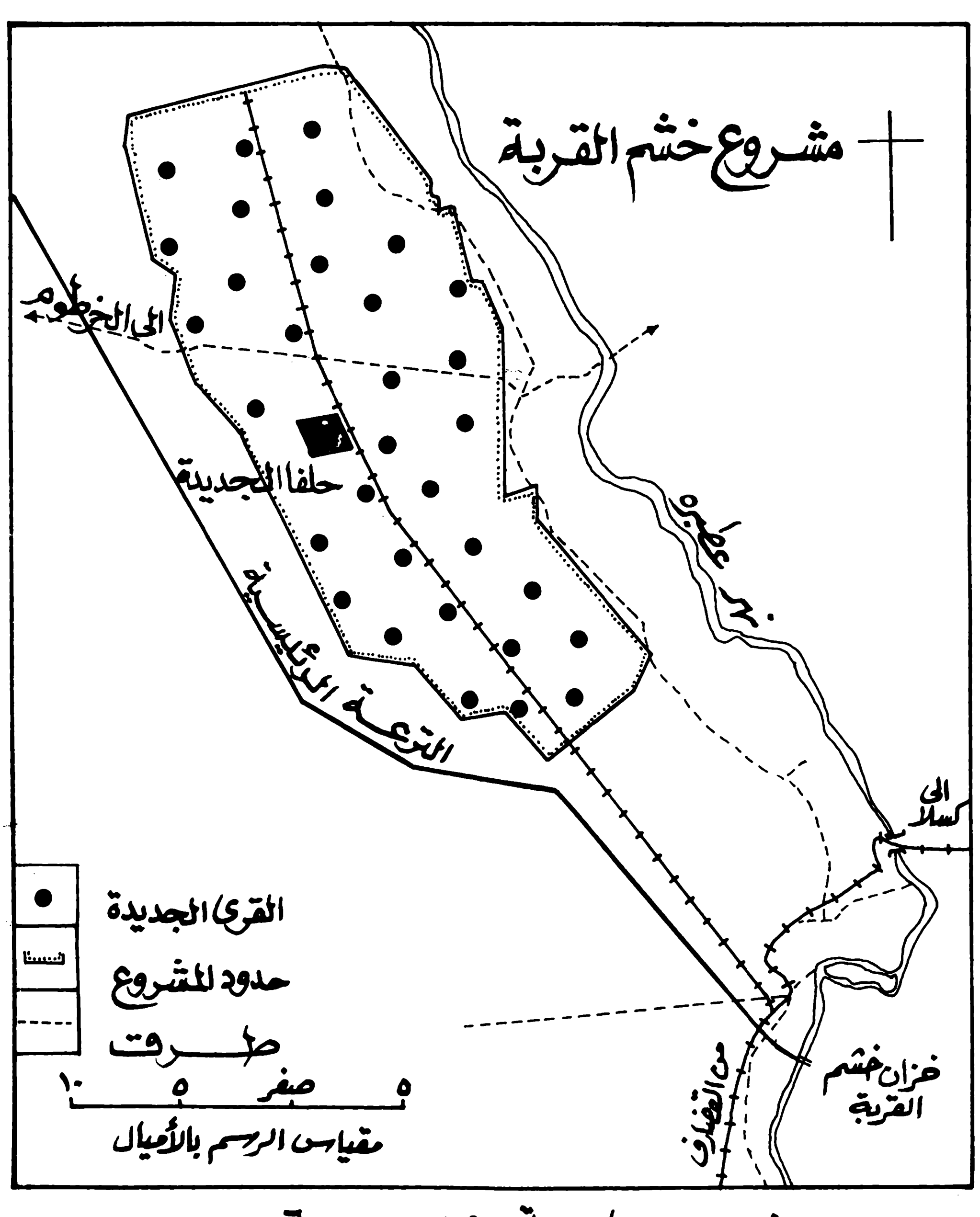
ارتبطت المنطقة منذ عهد بعيد بتاريخ قبيلة الشكرية والقبائل الأخرى المحلية التى تتبع لادارة الشكرية ، فكان لابد من أن تتم التسوية بين ناظر الشكرية والقبائل المحلية من جهة ، وبين السلطات الادارية وناظر الشكرية بين جهة أخرى . وبالفعل تم الاتفاق حسب ما جاء فى تقرير لجنة التوطين كالآتى :

١ – أن يكون التعويض فى القبيلة ايجاد بديل يعوض الاهالى عما فقدوه من المراعى وذلك بشق ترع تمتد خارج المشروع لشرب الاهالى وحيواناتهم ثم تترك المراعى للتنظيم الادارى .

٢ – أن تعطى أراضى زراعة داخل المشروع للأهالى الذين يسكنون المنطقة التى تنحصر بين المشروع ونهر عطبرة وذلك بغرض زراعتها حسب الطرق المتبعة فى المشروع .

٣ – أن يعوض الأهالى الذين سبق أن أخذت أراضيهم الزراعية لقيام المزرعة التجريبية ، ومبانى وزارة الرى تعويضاً ماليا ليتمكنوا من أصلاح أراض زراعية أخرى . وقد تم الاتفاق على تعويض وقدره جنيه واحد عن الفدان ، وتجدر الاشارة الى أن هذا الاتفاق كان خاصا بمنطقة اسكان أهالى حلفا ، اذ أن امتدادات المشروع الزراعى وزعت أراضيها على القبائل المحلية .

وفى النهاية تمت تسوية الأراضى فى المنطقة بتسجيلها للحكومة للمصلحة العامة .



مشروع خشم القربة
الى الخرطوم
حلفا الجديدة
الترعة الرئيسية
بحر عطبرة
الى كسلا
خزان خشم القربة
من القضارف
القرى الجديدة
حدود المشروع
طرق
١٠ 5 صفر 5
مقياس الرسم بالأميال

خريطة رقم (٦)

خزان خشم القربة :

فى يناير سنة ١٩٦٠ ، شرع المهندسون السودانيون وعدد من المهندسين الفرنسيين فى دراسات وابحاث مائية وجيولوجية فى المنطقة المقترحة للخزان ، ثم تم اختيار المضيق الصخرى لنهر عطبرة عند خشم القربة ، وتقرر انشاء الخزان على قاعدة صخرية عند هذا المضيق فى النهر . فتعاقدت وزارة الرى مع شركة (سوقريا) الفرنسية لتصميم هيكل الخزان ومنشئاته ، وقد بُعث مهندسان هما أبو القاسم عثمان ومحمد حسن الى فرنسا لدراسة اعمال هندسة الخزانات وكل ما يتعلق بها وقد بذل الاثنان وزملاؤهما من وزارة الرى مجهودات كبيرة فى خزان خشم القربة والخزانات الجديدة الأخرى . وتعاقدت الحكومة أخيرا مع شركة تورنو الايطالية للقيام ببناء الخزان . وبدأ العمل فى فبراير ١٩٦١ وانتهى فى يوليو سنة ١٩٦٣ ، أى فى الموعد الذى حددته الاتفاقية لبدء تهجير السكان . وقد انشئ الخزان لغرض رى المشروع الزراعى وتوليد طاقة كهربائية لانارة مدينة حلفا الجديدة وقرى الاسكان ، وقد وفق المسئولون فى اقامة خزان يتمتع بمتانة البناء . وقد وصفه التقرير أنه يمثل : « تحفة معمارية رائعة يقصده السواح من كل مكان » .

ولكن نجد أن كميات كبيرة من الأخشاب تتراكم على النهر جنوب الخزان بحيث يخشى من أن تؤثر ذلك على فعالية الخزان مستقبلاً اذا ما استمر التراكم بهذه الصورة فى كل عام . لذلك تبذل المساعى دوماً لحرق تلك الاخشاب والتى تجدها عبارة عن فروع من الاشجار وجزوعها تأتى طافية مع النهر الذى ينقلها من الأراضى التى تحيط بمنابعه ومجراه على الهضبة الاثيوبية . كان ذلك عام ١٩٦٧ عندما تسنى لى زيارة الخزان ، ربما تغير الموقف الآن .

وتبلغ كمية المياه التى يخزنها الخزان حوالى ١,٣ مليار متر مكعب من مياه نهر عطبرة ، تمتد فى بحيرة طولها ٨٠ كيلومتراً وراء الخزان ومنها تمتد ترعة رئيسية طولها ٢٦ كيلومتراً لحمل المياه الى اراضى المشروع الزراعى .

المواصلات :

وتربط منطقة الأسكان من الطرق ، كما يربط حلفا الجديدة خط حديدى بخشم القربة يصلها بالخرطوم عن طريق سنار ، وببورتسودان عن طريق كسلا وهيا ، كما تربطها الطرق البرية بالخرطوم ، تسافر عليها عربات نقل البضائع والركاب يوميا عدا أيام الخريف حيث تتوقف طرق العربات فى

المنطقة ، بل فى معظم انحاء اقليم السافنا فى اواسط السودان ، وقد أنشئ حديثاً مطار صغير فى مدينة حلفا الجديدة يربط المدينة والمشروع جوا بالعاصمة وعن طريقها ببقية العالم . هذا بالاضافة الى مطار خشم القربة .

المشروع الزراعى والمنشآت الصناعية :

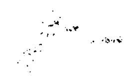
جاء فى تقرير لجنة التوطين أنه ، عندما اختارت الدولة خشم القربة موطناً جديداً ، كان الاتجاه يرمى لرفع مستوى المعيشة لابناء مركز وادى حلفا وتعويضهم عما فقدوه من أراض زراعية ونخيل وأشجار فواكه الخ .... ثم قررت الدولة أيضاً فى خطتها العشرية للتنيمة أن يحقق المشروع الزراعى أهدافاً أخرى مثل القضاء على حالة التخلف والفقر التى تعانى منها القبائل المحلية مع زيادة الدخل القومى وتوفير حصيلة البلاد من العملة الصعبة الاجنبية نتيجة للتوسع فى زراعة القطن ثم القمح والفول السودانى ، كما نجد أن المحصولات الرئيسية التى تقررت زراعتها فى المنطقة هى ثلاثة : القمح والفول السودانى والقطن . وقد أضيف الى ذلك قصب السكر وذلك لغرض صناعة السكر لسد حاجة البلاد منه توفير بعض العملات الاجنبية . وقد نجح المصنع فعلا فى انتاج كمية لا بأس بها من السكر ، كما أنه يستوعب عدداً كبيرا من عمال المنطقة ، وقد ادخلت منشآت صناعية اخرى منها طحن الدقيق وحلج القطن لتستوعب عددا آخر من عمال المنطقة وتساهم فى الاقتصاد الوطنى مساهمة فعالة .

الاجراءات الصحية قبل الرحيل :

أقامت الدولة اجراءات صحية فى منطقة الاسكان بالتعاون مع هيئة الصحة العالمية ، وقد تحدث السيد وزير الصحة المرحوم الدكتور/ محمد احمد على عندما قام بزيارة لخشم القربة فى اكتوبر سنة ١٩٦٠ قائلا :

« ان القاعدة العامة هى أن الأمراض لا تظهر فى بقعة من الأراضى الا اذا سكنها الانسان ، وأن المنطقة التى اختارتها الحكومة لا زالت بكراً حتى فى هذا السبيل . وأن وزارة الصحة قد أعدت العدة لذلك » .

ثم اشار بدورة الى الاستعدادات التى بدأت فى المنطقة بوصول الاخصائيين والخبراء لاستئصال الامراض قبل الهجرة ، ولحماية الأصحاء أيضاً اتخذت وزارة الصحة عدة اجراءات فى خشم القربة ، منها مكافحة الملاريا والامراض المستوطنة والبلهارسيا . كل ذلك بالتعاون مع هيئة الصحة العالمية .



اعداد المساكن وتوزيعها :

اقيمت المساكن فى الموطن الجديد على ضوء الاحصائيات التى أجريت فى وادى حلفا ولكن بعد أن انسحبت شركة تيرف من العمل فى بناء المنازل ، وزعت المبانى على المهندسين السودانيين وتم التسليم بالفعل فى الموعد المحدد قبل الهجرة . (وأقولها للحقيقة ... والتاريخ أن هناك اعتقاداً سائداً بأن المبانى التى شيدها تيرف أكثر متانة وأقوى من مبانى المهندسين السودانيين ومن يدرى ؟ قد تبرهن الاعوام القادمة عدم صحة هذه المزاعم .

واخيراً اكتملت الاجراءات واجريت الاستعدادات فى منطقة الاسكان ، والتى روعى فيها الطريقة التى كانت سائدة فى وادى حلفا وقراها ، بحيث يسكن الاهالى بقرب بعضهم البعض ، بحيث يؤخذ فى الاعتبار الجيرة التى عاشوا فيها فى حلفا وقراها ثم الروابط الأسرية وأواصر القربى ، حتى لايشعروا بالغربة فى موطنهم الجديد .

عندما اكتملت الاستعدادات فى وادى حلفا ، وفى منطقة الاسكان تأهب السكان للرحيل ، فاعدت القطارات الخاصة بالركاب وحمل كل قطار طبيباً وضابط صحة وقطارات اخرى لنقل الحيوانات والامتعة ، وسارت جميع هذه القطارات الى خشم القربة عن طريق عطبرة وهيا وكسلا .

ويقول التقرير أنه استقبل المواطنون أهالى حلفا المهاجرين فى كل الجهات التى مروا بها استقبالا كريما وقدموا لهم الاطعمة والمشروبات كزاد للسفر والعديد من الهدايا ، وعند وصولهم خشم القربة استقبلتهم وفودُ السكان المحليين من زعماء ومواطنى قبيلة الشكرية والقبائل الأخرى المنضوية تحت لوائها بالترحيب والذبائح والهدايا الكثيرة المتنوعة التى خففت كثيراً من أحزانهم النفسية . وبعد أيام قليلة من وصولهم بدأ صرف معونة هيئة التغذية العالمية والتى كانت تتكون من القمح واللبن والزيت والفواكه .

ولعل ماكتبه السيد/ ابراهيم أحمد أبراهيم المحامى رحمة الله فى كتابه (وداعاً بلادى) أصدق تعبير فى وصف حالة المواطنين عندما هجروا أوطانهم فى الشمال . والجدير بالذكر أن السيد/ ابراهيم المحامى كان من أوائل الذين عارضوا بقوة قيام السد العالى وكل الأجراءات المتعلقة بالتهجير وأبدى عدم ارتياحه لمستقبل المشروع وما سيؤول إليه مصير أهل المنطقة . واليك ما جاء فى كتابه :

«اليوم ١٤ مارس سنة ١٩٦٤م» .

والمكان .... قرية دبيرة على الحدود الشمالية لجمهورية السودان وهى احدى القرى التى تقرر تهجيرها فى نطاق المنطقة التى ستغمرها مياه السد العالى .... والساعة الآن الرابعة بعد الظهر ، قد مالت الشمس نحو المغيب مرسلة اشعتها الملتهبة على قمم الجبال فى جنبى الوادى الضيق – وادى النيل .

قطار طويل يقف على الخط الحديدى الذى يخترق المنطقة والمهاجرون يتدفقون الى الداخل ، نساءً ورجالاً ، وقد علا صراخهم وعويلهم فى انغام صاخبة ذبت فيها احزانهم بين صفير القطار وزئير البخار وهو ينفثه متأهباً للرحيل .

وأنا أقف بين جمهرة المودعين الذين قدموا من القرى المجاورة لوداع المهاجرين والقاء النظرة الاخيرة عليهم قبل أن ينطلق القطار الى جوف الصحراء وراء سلسلة لاتنتهى من الجبال ، والمودعون أنفسهم يبكون من شدة التأثر بهذا المنظر الذى لم يحدث قط فى تاريخ البلاد ، وهرب البعض من جو الجمهور الخانق الى ظلال النخيل التى احاطت بالمنطقة ، واخذوا ينتحبون فى صمت واعينهم

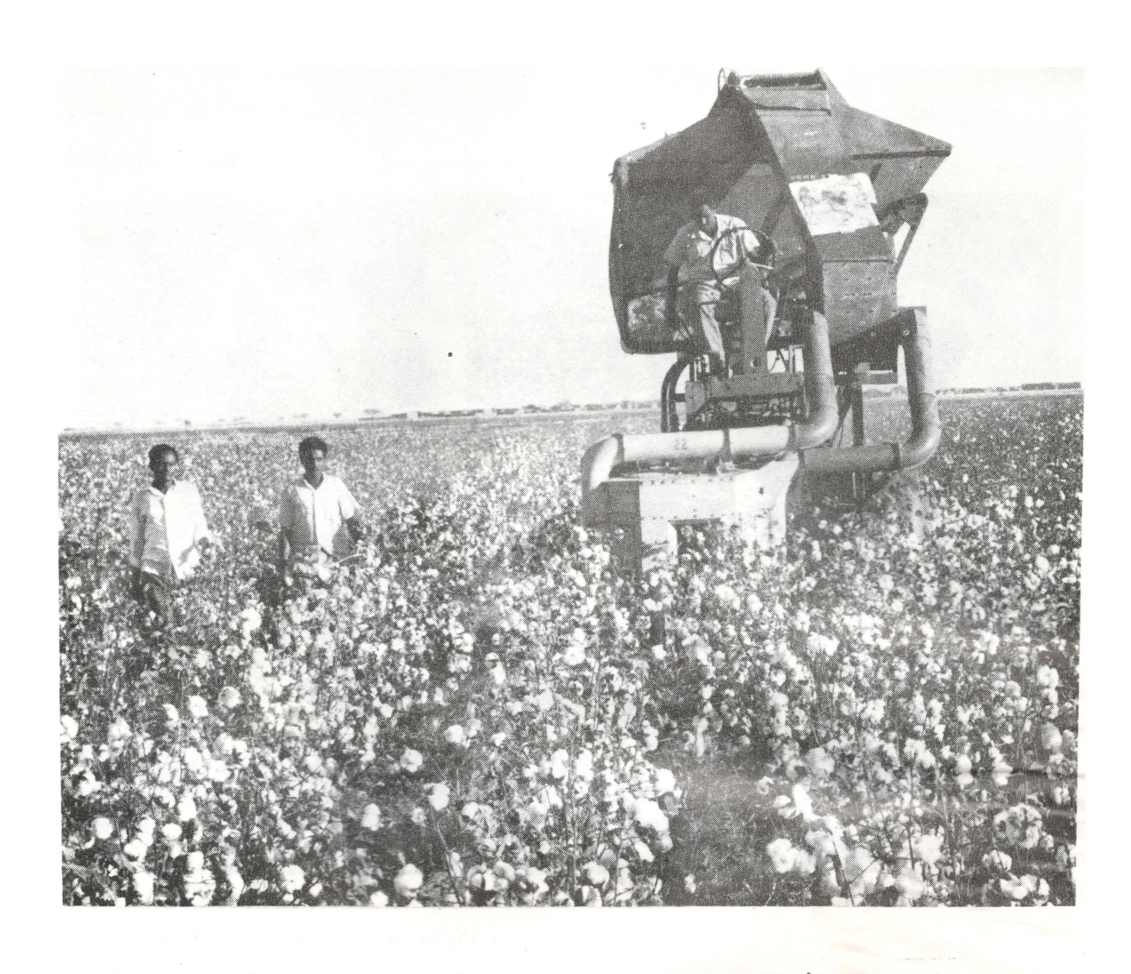
مشدودة الى القطار الرابض والكتل البشرية التى اخذت تطل برؤوسها المنتحبة من نوافذ القطار ... فهذا طفل يصرخ باحثاً عن امه وسط الكتل البشرية المتلاطمة واعداد من كلاب الحى ترنو ذاهلة فى كل مايدور حولها ، وكأنها تحاول جاهدة أن تجد تفسيراً لهذا الصخب وهذا الضجيج وهذا القطار الذى يقف لأول مرة فى المنطقة .

وأخير انطلق صفير حاد من القاطرة يؤذن بالقيام ، ثم علت الأصوات المنتحبة فى شكل يصم الآذان ، ودارت القاطرة وأخذت تتحرك فى بطء ثم ازدادت سرعتها قليلا وأخيراً انطلقت بقوة هائلة نحو الجنوب ... وأخذنا نرقب القطار يتلوى بين النخيل يظهر تارة ويختفى أخرى حتى غاب وراء الجبال ... ووجم المودعون قليلا ثم انطلق كل الى حال سبيله وانطلقت كلاب الحى فى دروب مبعثرة لا تدرى الى أين تتجه . وانتاب المكان جو من الصمت والكآبة وكأنما انفض جمع كان يوارى عزيزاً فى مثواه الاخير » .

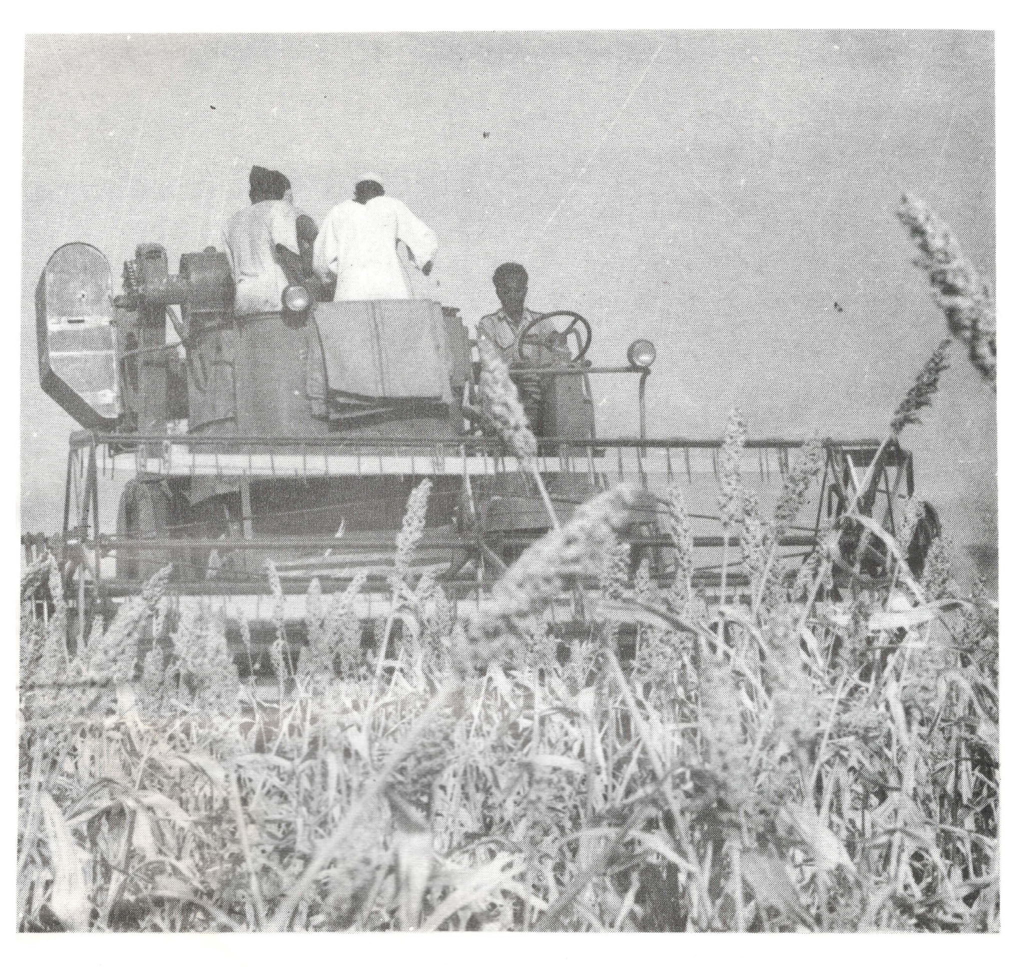
هذه الكلمات التى عبر بها الكاتب المبدع ابراهيم احمد ابراهيم المحامى عن شعور النوبيين ، سمعتها من كل مواطن اجتاز التجربة وذلك عندما تسنى لى زيارة المنطقة عام ١٩٦٧م ، حيث أن الجميع لم ينسوا موطنهم القديم ، غير أنه بمرور الأيام وتأقلمهم بالبيئة الجديدة ربما يقتنعون بأنهم مقبلون على مستقبل زاهر لبناء حضارة جديدة فى هذا الجزء من السودان الحبيب تعوضهم ماتركوه من ورائهم فى الشمال الأقصى من البلاد . ولابد أن يمر بعض الوقت قبل أن يتم التكيف مع البيئة الجديدة ويمد المجتمع الوافد جذوره فى التربة التى رحل اليها حتى يألفها وتألفه ، وقد يجد هناك تحقيقا لكثير من الأمانى الطموحة التى لم تتحقق من قبل . وقد تجد الأجيال المقبلة آفاقا جديدة رحبة ، وتختزن التجربة الماضية لاثراء حياتها فى سعيها الدائب لبناء السودان المتحد بوتقة انصهار لكل القبائل والشعوب ، ونموذج فريد لتعايش الثقافات وتفاعل الحضارات على مر الدهور .



منظر لقيط القطن باليد يقمن به البنات والأولاد في المشروع الجديد ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



حصادة قطن تعمل في احدى حواشات القطن في مشروع حلفا الجديدة ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



إحدى الآلات الزراعية الحديثة « الحصادات » تعمل في مشروع حلفا الجديدة ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



احدى ترع الرى في مشروع حلفا الجديدة وجزء من أرض المشروع ..
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم » ..



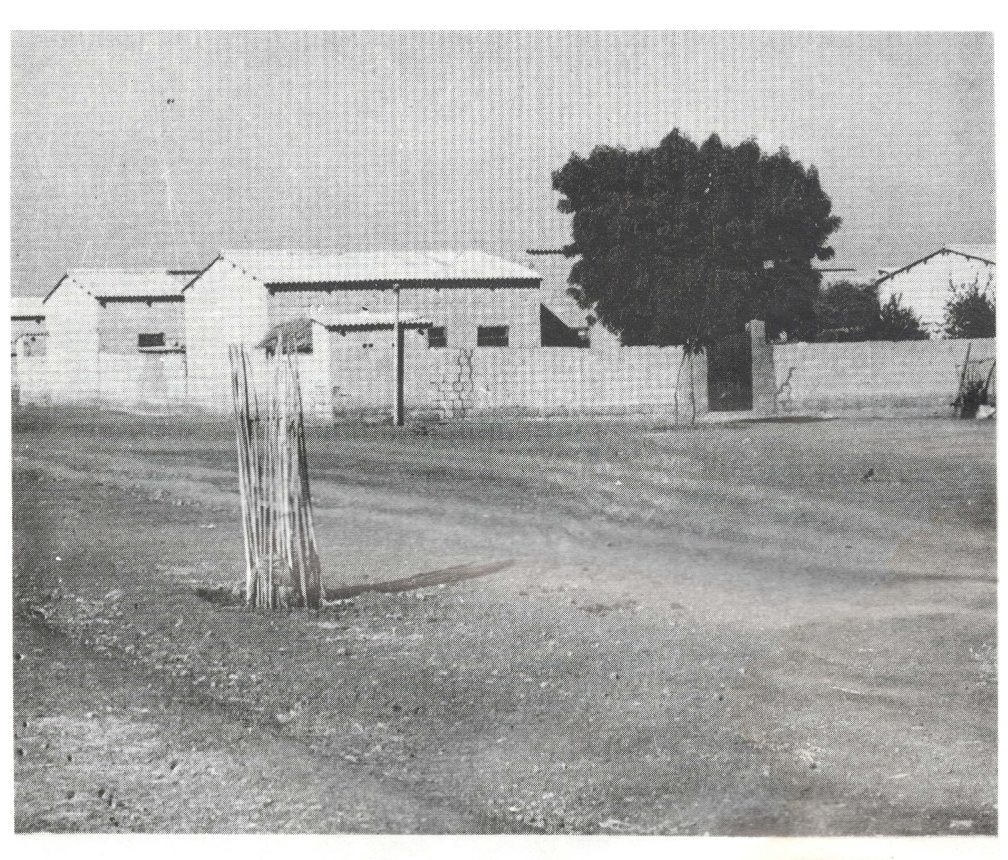
مزاوع القطن في مشروع حلفا الجديدة ..
« تصوير وزارة الثقافة الاعلام - الخرطوم » ..



المزارعون النوبيون داخل احدى مزارع المشروع ومعه بعض موظفي
« تصوير وزارة الثقافة والاعلام - الخرطوم » ..



منظر عام لمباني الأهالى بوادى حلفا ..



احدى القرى السكنية الجديدة في الموطن الجديد «في حلفا الجديدة».
«تصوير وزارة الثقافة والاعلام ـ الخرطوم»..

قيام وادى حلفا على شاطئ بحيرة النوبة

ذكرنا آنفا ان بضع الآف من النوبيين قد رفضوا الهجرة الى الموطن الجديد فى حلفا الجديدة وآثروا البقاء على شاطئ بحيرة النوبة على بعد حوالى عشرين كيلو مترا جنوب شرق مدينة وادى حلفا . والتى غمرتها مياه السد العالى وقد تحملوا الكثير من المشقة والمعاناة حيث الصعوبات التى برزت فى الأيام الأولى مثل عدم استقرارهم لعدم التأكد من الحد الاقصى للفيضان كما أن بعد المسافة من المناطق الزراعية جعل المنطقة تكاد تكون معدومة من المقومات الاساسية لحياة الانسان اليوميه كالخضر والفواكه الطازجة والحبوب وكل هذه المواد الغذائية كانت تجلب من أماكن بعيده مثل ابى حمد وعطبرة والخرطوم وحلفا الجديدة وجمهورية مصر العربية . اضف الى ذلك عدم استقرار العاملين بها من موظفى الحكومة نظرا لما كانوا يعانونه من صعوبة الحصول على المواد الغذائية الضرورية .

لكل ذلك ولاعادة تعمير منطقة وادى حلفا وبحيرة النوبة ولتسهيل الحياة وسبل كسب العيش لمواطنى المنطقة فقد تم تكوين اللجنة القومية لتطوير وتعمير وادى حلفا وبحيرة النوبة بموجب القرار الجمهورى رقم ١٤٩ لسنة ١٩٧٦ تحت رعاية السيد النائب الأول لرئيس الجمهورية ورئاسة السيد وزير الرى ومن أهم أهداف واختصاصات هذه اللجنة :

١ – اقامة مشروع زراعى اعاشى لتوفير الخضروات والفواكه لمواطنى المنطقة .
٢ – تعبيد الطرق الداخلية وربطها بمناطق سكوت والمحس .
٣ – التنقيب عن الثروة المعدنية .
٤ – تحسين الخدمات العامة والعمل على ترقيتها .
٥ – وضع خطة تفصيلية تهدف لخلق ادارة مقتدرة لتشرف على المنطقة فى وضعها المستقبلى .
٦ – تعبئة الجهود الرسمية والشعبية والعالمية للمساهمة فى تطوير المنطقة .
٧ – الاشراف على تنفيذ الخطة التى تهدف الى تطوير المنطقة اقتصاديا واجتماعيا وغير ذلك مما يبعث الحياة على شاطئ البحيرة .

وكوّنت اللجنة القومية لتطوير وتعمير وادى حلفا وبحيرة النوبة على النحو التالى :

السيد/ المهندس يحى عبد المجيد رئيس اللجنة القومية ووزير الرى
– السيد/ المهندس عبدالله محمد ابراهيم عضو اللجنة
– السيد/ محافظ المديرية الشمالية ،، ،،

- السيد/ الدكتور السمانى عبدالله يعقوب ،، ،،
- السيد/ سيد محمد عمر ،، ،،
- الدكتور عباس مختار ،، ،،
- السيد/ نجم الدين محمد شريف ،، ،،
- السيد/ الدكتور عبدالرحمن عبدالوهاب ،، ،،
- السيد/ المهندس كمال على محمد ،، ،،
- السيد/ توفيق أحمد سليمان ،، ،،
- السيد/ أحمد محمد خليل بيرم ،، ،،
- السيد/ محمد أحمد كونتى ،، ،،
- السيد/ دهب عبدالعزيز ،، ،،
- السيد/ عبدالرحيم محمود اسماعيل ،، ،،
- السيد/ زبير بشير طاهر ،، ،،
- السيد/ المهندس أحمد عباس بدر

مقرر اللجنة ومعتمد تطوير وتعمير وادى حلفا وبحيرة النوبة

- السيد/ عبدالمجيد محمد عبداللطيف مساعد المعتمد وسكرتير اللجنة

وبذلك تصبح وادى حلفا مدينة تحل محل حلفا التى غمرتها المياه بل تفوقها حجماً واهميه وعمرانا ، وإن تنفيذ مشاريع اللجنة القومية لتعمير وادى حلفا واقامة المنشآت والورش من شأنها جذب الايدى العاملة وتنشيط الحركة التجارية والعمرانية والسياحية مما يؤثر على رفاهية السكان والمزيد من الخير والنفع .

وقد تصبح وادى حلفا نقطة سياحة هامة للأستشفاء ولزيارة اماكن الآثار بما فى ذلك أبوسمبل التى تقرب منها ، وكذلك الشلالات الساحرة الواقعة جنوبها .

ولاشك ان أهم مقومات النشاط الاقتصادى التى تساعد على قيام المدن وتطورها هى وسائل المواصلات ، ويعنى هذا ربط وادى حلفا شمالاً بمصر وجنوبا بالخرطوم وكذلك يتطلب موقعها ربط المدينة بالمنطقة الواقعة جنوبها ، أى بلاد سكوت والمحس - فلابد من تعبيد الطرق وتنظيم الخطوط الحديدية المذكورة سابقا ، ويؤمل أن يضم هذا المشروع اعادة فتح خط حديدى حلفا عكاشة -

كرمة ، ذلك الخط التاريخى الذى انشئ عام ١٨٧٥ لاسباب حربية ، ثم تقرر التخلى عنه ، ولاسيما بعد مد خط حلفا – الخرطوم ، ولا زالت آثار هذا الخط باقية الى يومنا هذا ، فهناك الردميات الخاصة بالخط القديم ، وبقايا الكبارى والممرات خلال التلال ، مما يسهل أى عمل هندسى لاعادة مد الخط الحديدى ، ويقلل من تكاليف المشروع – وحتى وقت قريب كان يستعمل قضبان الخط القديم لسقف بعض منازل اهالى المنطقة التى كان يمر بها الخط .

ان اعادة مد خط كرمة تترتب عليها آثار عديدة ، ذات فوائد قصوى للمنطقة منها انعاش منطقة سكوت والمحس اقتصاديا وبالتالى تنشيط الحركة التجارية بوادى حلفا ويساعد على نقل البلح وتصديره وعلى مد وادى حلفا بالخضر والفواكه من اماكن يمكن استغلالها للزراعة جنوب المدينة – ويساعد الخط على نقل الزوار والسواح الى مناطق الآثار فى عمارة وصاى وصلب ودلقو وكرمة والمسافرين الى حمام عكاشة والشلال الثانى ودال والقرى المجاورة ذات الطبيعة الساحرة والخير الوفير – كما سيكون للخط اثر فعال فى بث الحركة التجارية فى منطقة دنقلا كلها .

لكل ذلك يؤمل ان يفكر المسئولون جديا فى نظر اعادة فتح خط حديد حلفا – عكاشة – كرمة الذى يتوقع منه ان يلعب دورا هاما فى بث الحياة فى وادى حلفا وانعاش حركتها وبعث الحياة الاقتصادية فى مناطق سكوت والمحس ودنقلا ، هذا واذا ما نفذت مشروعات التعمير كما خططته لجنة التعمير كما ذكر آنفا ، فلا شك سيكون له اثر فعال على استقرار واسعاد سكان المنطقة – كما ستذهب شوطا بعيدا فى تحقيق آمالهم لاستعادة بناء مدينة وادى حلفا وضواحيها التى غمرتها المياه ، وهو حلم يداعب كل نوبى نما وترعرع فى تلك المنطقة .

بهذا تكتمل صورة النوبة السودانية حتى غرقها وانتقالها الى اماكن جديدة – ويلاحظ ان هذا الكتاب الموجز لم يشمل النوبة المصرية التى انتقلت الى كوم أمبو – ويؤمل فى المستقبل ان تضاف حلقة جديدة عن النوبيين فى كوم أمبو حتى تكتمل صورة « النوبة .. التراث والانسان عبر القرون » .

وبالله التوفيق ، ،

المراجع

١ــ د . شوقى الجميل : تاريخ سودان وادى حلفا

٢ــ د . مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى/القاهرة ١٩٦٠

٣ــ د . حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ١٩٥٨

٤ــ د . مكى شبيكة : السودان عبر القرون

٥ــ د . مكى شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية/القاهرة ١٩٦٤

٦ــ د . صلاح الدين الشامى : (التوجيه البحرى للسودان واثره فى طرق التجارة والمواصلات)

٧ــ عثمان عبدالله السمحونى : الكراسة رقم ٧ من ابحاث شعبة ابحاث السودان - جامعة الخرطوم (نبتة ومروى فى بلاد كوش)

٨ــ حسن كمال : تاريخ السودان القديم/١٩٦٤

٩ــ د . محمد عوض محمد : نهر النيل

١٠ــ د . محمد عوض محمد : السودان الشمالى

١١ــ د . الشاطر بصيلى عبد الجليل معالم تاريخ سودان وادى النيل ١٩٥٥

١٢ــ نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ١٩٤٠

١٣ــ د . سليم حسن : جغرافية مصر القديمة

١٤ــ د . مصطفى عامر : حضارات عصر ما قبل التاريخ

١٥ــ ابراهيم احمد ابراهيم : وداعا لبلادى

١٦ــ متوكل احمد امين : ترجمة (بعانخى العظيم) لهارير جونسون ١٩٧٠

١٧ــ لجنة توطين اهالى حلفا : تقرير لجنة توطين اهالى حلفا عام ١٩٦٩

١٨ــ تقرير لجنة تعمير وادى حلفا بحيرة النوبة عام ١٩٧٨

١٩ــ بعض مقالات كتبها اصحاب الاختصاص فى الصحافة المحلية (الراى العام - السودان الجديد ومجلة الخرطوم - الايام) عن تهجير النوبيين .